

المجلد الحادي والعشرون

ربيع الثاني سنة ١٣٦٩

٩٤

مجلة الأزهر



مركز تحقيق وتطوير علوم إسلامية

تصهّد رُشهرِ بيا عن مشيخة الجامع الأزهر الشريف

مجلة الأزهر

المجلد الحادى والعشرون

مدير المجلة

ورئيس تحريرها

محمود فريد أبو بكر

مركز تحقيق مكتبة الأزهر

الاشتراك السنوى
١٠ مصر والسودان
٥٠ الخارج القطر المصرى

نمن العدد ١٠٠ طبعاً

ادارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة

مطبعة الأزهر

١٩٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ميرداد محمد صلى الله عليه وسلم

كلية حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى
شيخ الجامع الازهر فى مناسبة المولد النبوى الشريف

منذ أربعة عشر قرناً واثنين وعشرين عاماً تقريبا ، ولد محمد صلى الله عليه وسلم ، والعالم إذ ذاك فى حيرة شاملة ، مما إيمانيه من اضطراب شمل جميع نواحيه ، وفوضى غيرت ناموسه ، وغدت تسيطر على كل شئ فيه ، فالأمور تقاس بمقياس المنافع الذاتية ، والفضائل لم يبق منها إلا اسمها ؛ الضعيف ينخضع لنداء القوى ، ويلبى ما يأمر به ، لا عدل هناك يوقف الجائرين عد حد ، ويتنص للضعيف من القوى ، ولا إنصاف يضع حدا للمظالم والطغيان .

وهكذا كان العالم يمج فى بحر لحي ، ظلمات بعضها فوق بعض ، ينشد حياة جديدة ، ولكنه لا يدري كيف تتم ، ويشعر بالظلم والجور ، ولكنه لا يدري ما الفسكك منهما ، ويرجو الأمن والسلام ، ولكنه لا يدري كيف يحققهما ؛ ويتشوف إلى منقذ قوى ، يضع عنه هذه الأغلال والآصار التى عليه ، ولكنه لا يعرف كيف السبيل إلى ذلك ، ويتوق إلى مصلح يقيل الإنسانية ، مما تعانيه من امتنان ، ولكنه لا يهتدى إليه ...

وبين هذه الآلام التى تجثم على صدر العالم ، ويضيق بها ذرعا ، والآمال التى يرجو أن تتحقق بين عشية وضحاها ، ولد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يدري أحد من العالم أن هذا المولود سيحقق الله على يديه للبشر السعادة والمتعة ،

والعز والسؤدد، وأن الله سيصطفيه لرسالة تضيء للعالم طريقه، وتهديه إلى أقوم السبل، وأنه سيدعو إلى دين جديد، يسمد البشرية، ويسوى بين القوى والضعيف، ويخلص الناس من جبروت الطغاة، لا يدعو إلا إلى الفضائل، ويقضى على نوازل الفساد التي استشرت.

نعم لم يكن يدري أحد من العالم، أن هذا المولود هو الذي سيكون على يديه فكك أسرهم، وصلاحهم.

وظل العالم كما هو؛ يبنى الإصلاح، ويتشوف إلى الخلاص، ومحمد يشب ويترعرع، فنشأ على مثال خاص، لم ينعم بما نعموا به، من والد يحنو عليه ويرعاه، فقد مات أبوه هبداً لله وهو لمّا يزل في بطن أمه، ولم يلبث أن فقد أمه وهو في السادسة من عمره، وكفله بعد وفاة أمه جده عبد المطلب، ثم بعد جده عمه أبو طالب، وعمره إذ ذاك ثمانى سنوات.

وقد شاء الله، أن يحرم محمد صلى الله عليه وسلم، من حنان أبويه، حتى يحنو على المحرومين قاطبة، يحنو على المحرومين من الآباء والامهات، ويحنو على الذين أبى عليهم مجتمعهم إلا أن يظلوا محرومين.

وهكذا كان الحنو ظاهراً في كل تصرفاته، صلى الله عليه وسلم، في نشأته وفي شبابه، وقبل بعثته؛ وبعد ما أصبح صفة ملازمة من صفاته، صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث..

ومضى محمد إلى ميدان الرجولة، ونفسه لم تدن به يوماً، أو تصرفه عن غير الجيد والعبادة، والتفكير في الكون، والعزوف عما وجسد عليه قومه، من عبادة للأوثان، وتقديس لها، وكان ينصرف عنهم إلى غار حراء متعبداً حتى جاءه الوحي.

بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو في الأربعين من عمره، وظل ثلاث عشرة سنة بمكة بعد بعثته، يدعوها إلى الدين الجديد، ووجد فيها من صنوف

الإيذاء والاضطهاد ، ما لا يقوى على احتماله بشر ، ولكنه لم يهن ولم يضعف ، ولم ينصرف عن الدعوة ، برغم ما صنعت قريش ، وما ابتكرته من ضروب الإيذاء ، وصنوف الاضطهاد ، ولم ينبج الرسول صلى الله عليه وسلم من شرم إلا بهجرته إلى المدينة .

وهناك أذن الله للدعوة أن تنتشر في الآفاق ، وأن يدخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة بعد ثمانية أعوام من الهجرة - قاهراً الشرك والجبروت ، متساعماً مع الذين تأمروا على قتله بالأمس .

يضيق بي المقام لو حاولت في هذه المجالة ، أن أتناول حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما نال العالم على يديه من إصلاح في مختلف نواحي الحياة ، ما كان يقدر له أن يتمتع بها ، لولا بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

وحسبي في هذا المقام أن أقول : إن الإنسانية مدينة لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من نظم وتعاليم ، وما وضعه من أسس في التشريع ، تقصر عنها عقول البشر ، وما حققه لها من معان سامية ، ساوت بين الناس ، ولم تجعل لعربي فضلاً على عجمي إلا بالتقوى : . إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

بهذه المبادئ والتشريعات الإلهية ، كفل محمد صلى الله عليه وسلم لبني الإنسان السعادة والعزة والمنعة ، وهياً لهم حياة كريمة ، ينعمون بها في الدنيا ، ويؤجرون عليها في الآخرة .

وحدة الأمم ووحدة الأديان

شرع الله الإسلام ليسكون ديناً عاماً للبشرية كافة بعد أن أصبح ذلك ممكناً بتواصل أممها، وتعارف جماعاتها، وتبادل تجاراتها وثقافتها، وقد اطردها التقارب واتصلت حلقاته حتى لاحت بوادر الوحدة العالمية لبعيدى النظر منذ أجيال، وصارت وحدة الدين أمراً لا بد منه، بل أضحت في حكم الأمر الواقع لدى أهل النظر البعيد في الشؤون الإنسانية. وكيف لا يكون الأمر كذلك والنفوس والعقول والعواطف البشرية تتفق في مطالبها ووسائلها وغاياتها، فإن تخالفت في بعضها فإنما هو تخالف عرضي سببه تخالفها في درجات ثقافتها، وتباينها في أساليب تفكيرها. ولا يجوز لنا أن ننسى أن لاختلاف الأجناس واللغات والمدنيات، تأثيراً خطيراً في المبادعة بين الشعوب، ولكن الكوارث الاجتماعية، والازمات الاقتصادية، وضرورة هجرة الجماهير الفقيرة من بعض الأمم، للعيش في بلاد البعض الآخر، تحت ضغط العوامل الاقتصادية، كل ذلك أثر في عقلية الجماعات البشرية، وأضعف من شدة الروابط الجنسية، ومهد السبيل للقول بإبطال الحروب، وبضرورة إيجاد وشائج ودية بين جميع الشعوب.

فالوحدة العالمية في طريق التكوين، وقد تواترت أشراطها بتأليف جماعات دولية للنظر فيما يشجر بين الأمم من خلافات إقليمية، أو منازعات استعمارية؛ بل تسلم كبار المتصرفين في شؤون الأمم، في توزيع المواد الأولية الضرورية للصناعات، مما يكثر في بعض المستعمرات دون البعض الآخر، على الأمم التي تحتاج إليها، قطعاً لذرائع الخلافات الدولية التي تجر إلى الحروب الوحشية. بل حدث ما هو أبلغ من ذلك في موضوع الوحدة العالمية، وهو نشوء رأي جديد لم يكن له أثر في العالم الإنساني، وهو أن يكون للأمم أجمع حكومة عالمية تسوسها بروح المساواة والعدل، فتنظر في مصلحة كل منها كما تنظر الحكومة

وحدة الأمم ، ووحدة الأديان ٢٩٣

الواحدة في مصلحة أمتها . وقد نادت بهذا المبدأ منذ سفتين جماعه في أمريكا ، وصرح رجالات من أكبر الدول بأن هذا الضرب من الحكومة الجماعية هو الدواء الوحيد لحسم الخلافات بين الأمم ، وإبطال الحروب بينها ، وإقرار السلام والإخاء فيها .

هذا الاتجاه الانساني طبيعى محض ، ولا يحول دون تحقيقه إلا عوائق غير طبيعية من اختلاف الاجناس واللغات والعادات ، ولكن من يتأمل في مصائر الاحوال ، ير أن هذه العوائق يضعف تأثيرها تدريجيا بانتشار اللغات ، وبترجمة المؤلفات ، وبتبادل السياحات ، وكل هذه العوامل تنمى يوما بعد يوم .

ولا يجوز أن يغيب عن الأذهان أن الانتقال بين الأقطار بواسطة الطيارات ، يعتبر من أقوى أسباب توحيد الشعوب . فالبلاد التي كان لا يمكن الوصول إليها إلا بعد نحو عشرين يوما بل أكثر ، يقيمها الإنسان على ظهر باخرة من ذوات السرعة المفرطة ، أصبح يمكن الوصول إليها في ساعات معدودة . وقد تتحسن هذه الأداة الى حد بعيد حتى تصبح المسافات الشاسعة التي تفصل بلاد العالم كأنها قمرى متجاورة ، يذهب الإنسان إليها ويعود منها في اليوم نفسه . فهل تسأل بعد هذا الى أى مآل تقول الاتصالات بين الشعوب بهذه السرعة ، وإلى أى مدى يبلغ التعارف بينها ؟

ولا تنس أنه كلما أتقنت الأمم فنون الاجتياح والتخريب ، واستكملت وسائل إبادة أعدائها بالقوى الذرية والاشعة الكونية ، وما سيكشف عنه العلم من الذرائع التي لا تبقى ولا تذر ، قلنا لا تنس أن غريزة حفظ الذات تدفع بالأمم ، تحت قيادة الغرائز العليا للإنسانية ، الى ما يضع حدا لمنابعة هذه المجازفات الجنونية . وهل يقوم بهذه المهمة الخطيرة غير إخاء عام ينتشر بين آحاد النوع البشرى يحميم غوائل أنفسهم ؟

إذا صبح كل هذا فلا محيد عن حدوث إخاء عام بين البشر ، تتبعه وحدة سياسية شاملة لا تسمح للخلافات أن تتسرب اليهم . وتجيء وحدة التربية والتعليم فتكتسح من الأذهان كل ما علق بها من بقايا الخرافات القديمة ، والأوهام

العتيقة ، فتنياً الفطر لقبول دين عام يكون من السمو في العقائد ، والتزده عن الشكليات ، بحيث يتفق مع الفلسفة في أرفع معانيها ، فتنجها الأفكار للإسلام لأنه آخر الأديان نزولاً ، وقد صرح الناس بأنه الدين العام للعالم كافة . فلو أضفت إلى ذلك أنه شامل لجميع ما يرجو الناس أن يجدوه في الدين العام من الأصول والوسائل ، لما ساورك شك في أنه بالغ تلك المنزلة لا محالة .

هنا قد يقول قائل : إنك إذا كنت قد أحسنت في بيان الأسباب المهيئة لوحدة الأمم ، فلم تبلغ هذا الشأو في التدليل على اختيارها للإسلام ديناً لها ، فقد أغفلت أثر العلم في تجريد الناس من العقائد ، وفي اعتبارها من الصور الذهنية لشعوب لم تبلغ درجة النضج في تقديرها للوجود وقواه وعوامله . وقد فرغ العلماء من أمر الأديان واعتبروها موضوعات خيالية ؛ تلهو بها الشعوب في أدوار طفولتها .

نقول : إن هذا القول ، اتضح للعلم في هذا العهد ، أنه بعيد عن الصواب ، وأن إجماع العالمين في جميع العهود والبيئات على التدين لم يكن مظهرراً للوساوس ، ولكن تعبيراً عن حقيقة مرتكزة على الفطرة البشرية ، لم يتحقق العلم من وجودها إلا منذ قرن ، أي حينما تحقق بعد بذل جهود مفضنية في البحث من وجود روح للإنسان ، وأن هذه الروح تنزلت من عالم علوى لتبتلى في هذه الحياة الأرضية ، ثم تعود إليه بما كسبت من ثمافة وعلم ، لتتابع رقيها في عوالم علوية بعد هذه الحياة الأرضية . وقد أمضى مئات من هؤلاء العلماء في كل أمة متمدنة عشرات من السنين في تحقيق الاتصال بالروح البشرية بوساطة التويم المغناطيسى تارة ، وبوساطة الاتصال بالآرواح التي تجردت من أجسادها تارات أخرى ، مستخدمين في تجميع هذه البحوث الأسلوب العلمى على أكمل معانيه ، حتى تحققوا من وجود عالم روحانى وراء هذا العالم تنتهى إليه كل نفس بشرية بعد أن تخلع ثوبها المادى الذى تعيش به على الأرض . وقد دونوا ما رأوه من الأدلة ، معززة بالوسائل المادية التي توسلوا بها ، في مؤلفات قيمة لاسبيل إلى تجريجها . وقد تألفت مؤتمرات عديدة في أمهات المدن العالمية لتقرير ما وصلت إليه جهودهم المشتركة ، ونشرت نتائج مباحثاتهم في كتب خاصة . فهذه البحوث مجتمعة كشفت البواعث الطبيعية للتدين بما لا يدع شبهة لباحث .

وهنا يجعل بنا أن نسرد للقارىء ما يقوم عليه الإسلام من الأصول الأولية ، والمبادئ الأساسية ، ليرى بما لا يدع له شكاً أن الإسلام هو الدين الذى لا يحصى عن الأخذ به عند ما يصل الإنسان إلى هذا الحد من الرق العقلى ، ولتقدم العلمى ، وأنه سيصبح فى آخر الزمان دين العالم كافة ، فإليك بإيجاز :

- (١) الإسلام لا يضع لرق الإنسان العقلى والمادى حداً .
- (٢) ويعترف بحق الإنسان فى النظر والاستدلال ، بل يحثه عليهما ، ولا يعتمد بما لا دليل عليه ، بل يعتبره هراء محضاً لا يصح أن يلتفت إليه .
- (٣) ويحفزه على طلب العلم ويعتبر الاجتهاد فيه خيراً من العبادة .
- (٤) ويحرضه على التقاط الحكمة ولو كان قائلها مشركاً .
- (٥) ولا يمنح لطائفة من الأمة من الامتيازات ما يجعل طاعتها واجبة .
- (٦) ولا يفرق بين الأجناس والألوان واللغات فيجعل بعضها أفضل من سواها . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بتقوى أو عمل صالح » .

فالإسلام بهذه المبادئ الأولية أتى على جميع التقاليد التى بليت بها الأمم من وضع الحدود لنشاط العقول ، ومن الخيلولة بين المفسكرين والعلماء ، وبين العمل على ترقية الجماعات ؛ أو على تغيير النظام بما هو أفضل منها ، أو على تهئية أسباب الانتقالات الاجتماعية والفكرية التى لا يحيد عنها لدفع الأمم لبلوغ الغايات البعيدة من العلوم وتطبيقاتها . ودو بعدم منحه امتيازات لطوائف معينة من الشعوب جعل الباب مفتوحاً أمام أهله لبلوغ المثل العليا بدون قيد ولا شرط ، ومنع بذلك حدوث الانتقسامات الاجتماعية التى تطوح بالشعوب إلى المذاهب المتضادة مما يضر بنشاطها الدينى والدنيوى معاً .

السنة التشريعية :

الشعر

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكري ياسين

أخرج البخارى ، وأبو داود ، وابن ماجه . أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن من الشعر حكمة » .

يُفهم من هذا الحديث : أن بعض الشعر حكمة ، وبمضه ليس كذلك ، كما تشير إلى هذا قضية من التبعية المذكورة في الكلام ، فإذا كان في الشعر مدح الله ورسوله ، وذكر الله وتعظيمه ، ووجدانيته وإيثار طاعته ، والاستسلام له والحث على الخير ، وفعل البر والمعروف ، والزهد والمواظ ، والدعوة إلى المحامد والمكارم ، ونحو ذلك ، فهو حكمة وهو حسن يرغب فيه ؛ وإذا كان فيه كذب وإفك ، وتلبيس وتضليل ، وغش وتمويه ، وهجر وخش ونحوها ، فهو قبيح ومذموم يرغب عنه ، ويحذر منه ، قالت عائشة : الشعر منه حسن ، ومنه قبيح ، فخذ الحسن ودع القبيح . وعن ابن عمر : الشعر بمنزلة الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام .

والشعر في الأصل : اسم للعلم الدقيق ، ومنه ليت شعري ، ثم صار يستعمل في العرف اسماً للكلام الموزون المقفى قصداً ، وما وقع منه موزوناً اتفاقاً ومصادفة لا يسمى شعراً . والشاعر : هو المختص بصناعة الشعر ، وسمى شاعراً لفطنته ودقة معرفته ، وقيل : أصل الشاعر : الشَّعَر — بفتحين — يقال : شعرت : أصبت الشعر ، وشعرت بكذا : علمت علماً دقيقاً كإصابة الشعَر ،

وقد يعتبر بالشعر عن الكذب ، وبالشاعر عن الكاذب ، ومن ثم سموا الأدلة مكاذبة شعرا ، وقالوا في الشعر : أعذبه أكذبه ، وقال بعض المغالين : لم ير متدين صادق اللهجة مفلحا في شعره . ولما قال بعض الكفار عن النبي صلى الله عليه وسلم : إنه شاعر ، قيل : إنما أرادوا بذلك أنه كاذب ، لأن أكثر ما يأتي به الشاعر كذب . وقال الله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، » .

والأكثر على أن الرجز نوع من الشعر ، وقيل : لا يسمى شعرا ، لأنه يقال : راجز ، ولا يقال : شاعر . ولما كان الحداء في الغالب إنما يكون بالرجز ، وفي القليل بغيره من الشعر ، ألحقوه به .

والحكمة : هي القول الصادق المطابق للحق ، وقيل : أصل الحكمة المنع ، فغنى الحديث : إن من الشعر كلاما نافعا ، يمنع من السفه .

ويتلخص ما قاله العلماء ، في حكم الشعر في الإسلام ، في مذهبين : فذهب قوم إلى كراهة الشعر مطلقا ، قليلة وكثيرة ، حسنة وقبيحة ، واحتجوا بمثل ما نسب إلى ابن مسعود من قوله : الشعر مزامير الشياطين ، وبمثل ما نسب إلى مسروق من أنه تمثل بأول بيت شعر ، ثم سكنت ، فقيل له ، فقال : أخاف أن أجد في صحيفتي شعرا ؛ وبما روى عن أبي أمامة أن إبليس لما أهبط إلى الأرض قال : رب اجعل لي قرآنا ، قال : قرآنك الشعر ؛ وبما روى عن ابن عمر : من قال ثلاثة أبيات من الشعر من تلقاء نفسه لم يدخل الفردوس . وهذه كلها أخبار واهية ، وآثار ضعيفة لا يحتج بها ولا يعول عليها وأما حديث أبي سعيد الخدري القائل : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمرج ، إذ عرض شاعر ينشد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا الشيطان ، أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتلىء جوف رجل قبيحا ، خير له من أن يمتلىء شعرا ، » - فمحمول على الشعر المذموم ، أو الغالب على صاحبه ، المستولى عليه ، الشاغل له عن الطاعات ، والعبادات ، الصارف له عن العلوم النافعة ، والأعمال المفيدة ، أو المتخذ منه وسيلة للارتزاق ، والتكسب والشغب ، أو على أن هذا الشاعر كان كافرا ،

أو على أن هذه واقعة حال ، يتطرق إليها الاحتمال ولا عموم لها ، فلا حجة فيها ،
أو أن الذين خوطبوا بذلك كانوا في غاية الإقبال عليه ، والانتفاع له ، فزجرهم
عنه ، ليقبلوا على القرآن ، وعلى ذكر الله وعبادته ، فن أخذ من ذلك بما أمر به
لم يضره ما بقي عنده مما سوى ذلك .

وأما الكافة من العلماء ، فذهبوا إلى إباحة الشعر ، ما لم يكن فيه فحش ،
أو هجو ، أو إغراق في المدح ، أو كذب محض ، أو تغزل بمعين ، أو ما إلى ذلك ،
فقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم الشعر ، وأنشد بين يديه ، وقال : إن من الشعر
لحكمة ، وكانت عائشة تنشد :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كعجلد الأجر

وفي الصحيحين ، أنهم لما قدموا المدينة ، توعك أبو بكر وبلال ، وكان
بها وباء ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبَّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أفلعت عنه الحمى ، يرفع عقيرته ، ويقول :

الآيت شعري هل أبيت ليلة بوادٍ وحولٍ إذ خير وجليل

وهل أردن يوماً مساهاً نجسةً وهل يبدون لي شامةً وطفيل

ولما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يكن منه إلا أن قال : « اللهم
حبيب إلينا المدينة ، كحبنا مكة أو أشد » .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يضع لحيته منبراً في المسجد يقوم عليه ،
ينافح عن رسول الله ، أو يفاخر ، وكان الرسول يقول : « إن الله يؤيد حسان
روح القدس ، ما نافع أو فاجر عن رسول الله » ، ولما أنشده النابغة شعره ،
قال له صلى الله عليه وسلم : « لا يفضض الله فاك » . وكان أصحابه ينشدون عنده
الاشعار وهو يبتسم ، وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشدت رسول الله
صلى الله عليه وسلم مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت ، كل ذلك يقول :
هيه ، هيه ، ثم قال : إن كاد في شعره لَيَسلم .

وقد أنشد الشعر الخلفاء ، وفضلاء السلف ، ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه ، وإنما أنكروا المذموم منه ، وهو الفحش ونحوه . وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك إذا كان كذلك .

ولما نزل قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » جاء عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وهم يبيكون ، فقالوا : يا رسول الله ، أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أننا شعراء ، فقال : اقرءوا ما بعدها : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وانتصروا من بعد ما ظلموا .

وحمل المفسرون الشعراء في هذه الآية على الذين يهجون الناس بغير حق ، ويمدحونهم بما ليس فيهم ، ويبالغون في ذلك ، حتى يخرجوا عن جادة الحق والإنصاف ، ويخالفوا أحكام الشريعة ، ويأتوا في أشعارهم بالأكاذيب ، والباطيل ، وبما يتنافى الأخلاق والآداب والفضائل ، وعلى شعراء المشركين الذين يتبعهم غواة الناس ، ومردة الشياطين ، وعصاة الجن ، ويروون شعرهم ، لأن الغاوى لا يتبع إلا غاريا مثله ، أما الشعر الممدوح المتفق مع أحكام الدين وقواعد الأخلاق فلا مذمة فيه .

• • •

لا خلاف في أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لم ينفى الشعر ولم يقرضه ، وأنه ما كان يليق به ذلك ، وقد نفي الله هذا عنه في كتابه حيث قال : « وما غلبناه الشعر ، وما ينبغي له » ، وإنما الخلاف في جواز تمثله صلى الله عليه وسلم بشيء من الشعر ، وإنشاده إياه ، حاكيا له عن غيره ، فالبعض على أن ذلك لا يجوز ، حتى إنه لما تمثل صلى الله عليه وسلم بقول عبد الله بن رواحة :

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

قال هذا البعض : إن التاء في « دميت ولقيت » مكسورة في الرجز ، ساكنة في الحديث ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم تعمد إسكانها ليخرج عن الشعر ، وإن كان الإسكان لا يخرج الكلام عن الشعر ، وإنما يحوله إلى ضرب آخر منه ، من ضروب الكامل .

والصحيح أنه يجوز له صلى الله عليه وسلم أن يتمثل بالشعر ، وأن ينشده
حاكياً له عن غيره . أخرج البخارى فى الادب المفرد ، أنه قيل لعائشة : أكان
النبي صلى الله عليه وسلم ، يتمثل بشيء من الشعر ؟ فقالت : كان يتمثل
من شعر ابن رواحة :

وبأتيك بالآخبار من لم تزود

وأخرج ابن أبي شيبة : أنه صلى الله عليه وسلم كان يبنى المسجد ، وعبد الله
ابن رواحة يقول : أفلح من يعالج المساجدا ، فيقولها رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فيقول ابن رواحة : يتلو القرآن قائماً وقاعداً ، فيقولها
الرسول أيضاً : وكان ينقل اللّـين مع القوم فى بناء المسجد ويقول :

هذا الحال لا حال خيبر هذا أبر ربنا وأظـهر
وقال مرة أخرى :

لا تمّ إن العيش عيش الآخرة فارحم الانصار والمهاجرة
وأخرج الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن أصدق كلمة قاله
شاعر ، كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

استدل بقول النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة خيبر :
أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

على جواز وقوع الكلام منه منظوماً ، من غير قصد إلى ذلك ، ولا يُسمى
مثل ذلك شعراً ، ولا القائل به شاعراً ، وقد وقع كثير مثله فى القرآن الكريم ،
لكن أغلب ما جاء منه أشطار أبيات ، والقليل منه وقع وزن بيت تام ،
فن الاشطار ما هو من البحر الطويل قوله :

وإن شئتمو تحيوا أميتوا نفوسكم ولا تقتلوا النفس التى حرم الله

ومن السريع :

يا أهل دين الله بشراكمو أقر مولاكم به عنكم
إذ أنزل الله على المصطفى اليوم أكملت لكم دينكم

ومن المضارع :

وضارع أهل خير تل من رب يقينا
جنانا من خرافات وهم فيها خالدون

ومن المجتث :

اجتث قلبي بذنبي والله خيراً يريد
وكيف أخشى ذنوبي وهو الغفور الودود

ومن النام بما هو من بحر الرمل قوله :

مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات عابدات سائحات

ومن مجزؤ الرمل :

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

ومن الوافر :

ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين

ومن الكامل :

يأتىكم الثابت فيه سكينته من ربكم وبقية مما ترك

ومن الخفيف :

أريت انذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتما

وقد عني بهذا النوع كثير من المؤلفين ، وأوردوا منه في مؤلفاتهم طائفة كبيرة مما في القرآن ، واستخرجوا منه ما جاء فيه على أوزان البحور اتفاقاً ، فليرجع إليها من أراد .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني
المفتش بالأزهر

أشد ما تصاب به الأمم والجماعات من نكبات ، هو ياسها من نفسها ،
وشعورها بأن أمورها قد وصلت من السوء إلى حد لا يستطيع معه إصلاحها ،
وأن كبوتها قد وصلت بها إلى الحضيض ، فلا نهوض لها من بعدها ، وأن كل
يوم يمضى عليها هو شر من سابقه ، وخير من لاحقه .

شعور الأمة أو الجماعة بهذا ، وامتلاء نفوسها به ، من شأنه أن يفت في
عضدها ، وأن يصور لها المستقبل في صورة قاتمة مظلمة ، وأن يساعد على
تقويض بنيانها ، ويعجل بآخرتها ، وزوالها عن الوجود .

والامر في الافراد وإن كان كذلك ، لكنه أقل خطراً ، وأضعف أثراً ،
وأيسر علاجاً ؛ فإن الفرد إذا يئس لم تمت بموته الأمة ، ولم تضطرب
باضطرابه شئونها العامة ؛ وهانحن أولاء نرى أفراداً ييأسون ؛ فيستسلمون للموت
الادبي ، أو يقدمون على الانتحار ، فيذهبون إلى حيث اختاروا لأنفسهم ،
ولا تكاد الأمة أو الحياة الاجتماعية تشعر بهم .

وقد يجد الافراد من أمتهم ، أو أسرتهم ، أو أصحابهم ، أو ذوى المروءة في
مجتمعتهم ، من يأخذ بأيديهم ، وينزعهم من بين أحضان اليأس ، ويفتح أمامهم
بجالات الأمل والعمل ؛ أما الأمم والجماعات ، فإنها إذا فقدت الثقة بنفسها ، ويئست
من استقامة أحوالها وقدرتها على معالجة أمراضها ، لم تلبث أن تدخل في سكرات
الموت ، وتعالج منها الكروب والاهوال حتى تموت ، ولن تجد من يحول بينها
وبين هذا المصير ؛ ذلك بأن عجلة الإنقاذ ، لا بد أن تأتيها من غيرها ، ولم تعد
في تاريخ البشرية — إذا استثنينا عهود الفتح الإسلامي العادل — أمة تدفعها

لا تيأسوا من روح الله

إنسانيتها إلى التقدم لغيرها من الأمم بنية صادقة ، وباعث شريف مخلص ، هو مجرد الرغبة في إنقاذها من الخطر الذي يهددها ، وإن زعم ذلك أهل السياسة من دهاقين أوروبا وأمريكا وأشباههم من الطامعين .

لم يرتفع مستوى الإنسانية إلى هذا الحد ، ولم يصل الضمير البشرى بعد إلى هذه المرتبة ، وما من أمة اليوم تمد عينها إلى غير ما من الأمم ، إلا وهي تبطن منفعتها هي ، ومصالح أبنائها أو المتسلطين فيها ، وقل مثل ذلك في الجماعات أو الهيئات ، فإن إحداهما لا يمكن أن تمد يدها لإنقاذ سواها مما يعاني ، إلا إذا كان ذلك لمصلحة تعود عليها هي ، بأن تقوى من مبادئها ، أو تضعف من قوة خصومها ومنافسيها ؛ والأحزاب السياسية ممثلة لذلك واضح ، فإننا لا نرى حزبا يتقدم لموازرة حزب آخر ، بنية تقويته وتأيينه وتخليصه مما يعانيه ، إلا حيث يحسب أن ذلك قهر لخصومه ، أو تقوية له ، فيجعل ذلك قنطرة لأغراضه ، ووسيلة ينال بها ما يهدف إليه .

لا شك إذن في أن التماس الإنقاذ من الغير ، إن صح أن يؤدي إلى خير في شأن الأفراد ، فإنه لن يؤدي إلى خير في شأن الأمم والجماعات . ولهذا كان الخطر شديداً حين تشعر الأمة والجماعة باليأس من إصلاحها ، واستقامة شئونها ، وتفقد الثقة بنفسها .

• • •

في أمم الشرق الآن غربانٌ ما تزال تنعب في كل صباح ومساء ، ونعيمها مقلق للنفوس ، يميت للأمل في القلوب ، يصور للناس حياتهم في صورة كريمة ، ويخيّل إليهم أن شئون العرب والمسلمين قد فسدت فساداً لم يعد معه أمل في الإصلاح ، وأن المسلمين الأولين قد ذهبوا بالمثل الطيبة في الإيمان والخلاق والتضحية والإيثار ، فلم يتركوا وراهم حظاً منها لغيرهم ، وأن العزة التي كانت للآباء قد زالت حيث لا رجعة ، وأن الموت الزؤام هو نصيب اللاحقين ، كما كانت الحياة السعيدة القوية هي نصيب السابقين .

لست أريد أن أحداً من الناس ينادى بذلك حرفياً ، ويقول له لفظاً أو معنى ، وإنما أصف شأنهم في تضخم الأمور ، وتفطيع المساوي ، والبكاء الملح على المجد

الضائع ، والعزة المفقودة ، والكرامة الذاهبة ، والأخلاق التي دنست ،
والتماليد التي أهملت ، والريايا التي تناهت ، فهذه النظرة التشاؤمية بمثابة القول
الصريح بأنه لا سبيل لأهل هذا الجيل أن يدركوا شأو الأجيال قبلهم ،
أو يدانوها ؛ وفيها إجماع قوياً بأننا ضعفاء وعاجزون ، وأتانا معها حاولنا أن نعمل
أعمالهم ، أو نهض كما نهضوا ، فلن نصل إلى ذلك ولن نقارب .

إن هذا لن يكون داعياً إلى ملافاة النقص ، ومضاعفة الجهد ، وإنما هو
دعوة إلى اليأس والإذعان والتسليم ، فيه تثبيط للعزائم ، وإرجاف على النفوس
الوئابة الطلعة ، ولو أن أمراً ظل يردد على مسامع ولده أنه قاصر متخلف ، وأن
عقله راكد ، وجهده ضئيل ، وأن فلاناً من إخوته أو أبناء عمومته أو خؤولته
خير منه عقلاً ، وأذكى قلباً ، وأحرص على أداء واجبه ، وأقرب إلى درك النجاح ،
في مستقبله القريب والبعيد ؛ لو أن أحداً ظل يقول ذلك لابنه وهو يريبه ويحاول
أن يبعث في نفسه الرغبة والعمل والنشاط ، لما كان إلا مسبباً إليه ، يميتاً مواهبه
قاتلاً فيه الهمة والعزيمة والثقة بالنفس ، نائماً اليأس في أقطار قلبه ، وهو يحسب
أنه من الذين يحسنون صنعا .

مركز تحقيق مكتبة دار العلوم

إن المسلمين بخير وإن تعدت عليهم الوادي ، ونزلت بساحتهم الأحداث ،
وما كان ضعفهم وتخلفهم إلا تمحيصاً وتهذيباً سيخرجون منه إن شاء الله أقوياء
ذوي عزة ومنعة ، وإن فيهم الآن لدلائل نهضة في العلم والقوة والسياسة والتضحية
تبشر بمستقبل سعيد ، ورحابة طيبة ، فليترفق الكتاب والخطباء والدعاة بأنفسهم
وأهلهم ، وليعترفوا بنواحي القوة والحيوية والنهوض في أمتهم ، وليصوّروا لهم
المستقبل في صورة جميلة ، تشرح الصدور ، وتحيي ميت الآمال ، وتثير العزائم
والهمم إلى التدرج في مدارج السكال ، والانبعاث في طريق التقدم .

ولا يحسن أحد أن يدعو إلى غض العيون ، وسد الآذان عن نواحي
النقص ، فإن ذلك أيضاً من أسباب الضياع والانحلال ، ولكن علينا أن نصف
الداء ، ونصف العلاج ، فإننا إذا تعامينا عن الداء سرى فينا وأهلكنا ، وإذا
استسلمنا له ، وهولنا فيه ، وشغلنا أنفسنا باستفطاعه ، وتأمل وجوه الخطر فيه ،

ضعفنا عن مقاومته ، راعاه علينا هزالٌ يصيب الهمم ، وضعفنا تسرى إلى العزائم ، وتغلغل في الأعمال ، وإجداب في الفكر يسرى من الكبير إلى الصغير ، ومن الصغير إلى الكبير ، ويمر في كل طبقة ، ويجول في كل دائرة ، وكفى في بيان شناعة ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : : إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون . .

وإذا كنت أرجو من الكتاب وأهل القيادة والتوجيه في الأمة ، أن يفظنوا إلى ذلك ، ويعملوا على إحياء الآمال في نفوس الناس ، فإنني أرجو ذلك أيضاً إلى أساندي وإخواني وأبنائي من الأزهريين ، فقد سرى إليهم أن ضعفاً شديداً قد استولى على العلم والدين والخلق ، وأن الأزهر لم يعد يجد مكاناً له بين أهل الرأي والقيادة ؛ فأصبح محصوراً بين كليانه ومعاهده ، يدرس ما يدرس ، ويهمل ما يهمل ، ويجرى في كل ذلك على سنن من التباطؤ والتكاسل ، لا يدفعه عنه دافع ، ولا يعأ به عأى ، سرى إليهم ذلك ، وظنوا أن مصلحة العلم والدرس مضیعة بين التراخي والإهمال ، فيئسوا أو كادوا ، وصار كبارهم يتحدثون بما كان من علم الماضين ودأبهم وقوة إيمانهم ، ويشكون من الشكوى من انصراف القلوب ، وإحلال العزائم ، وضعف الأخلاق ، وصار المحدثون منهم يفعلون ما يشاءون ، ويأتون من الأمر ما يأتون ، ويدعون منه ما يدعون ، لا يدفعهم إلى ذلك دافع من العلم والتكمل بالدرس والمعرفة ، ولكن دافع من الرغبة في مستقبل مادي يضاهون به غيرهم من أهل المعاهد والجامعات الأخرى ، كأن المستقبل يضمن بالقوانين والقرارات ، لا بالتمكن من العلم ، وإقناع الأمة بكفاية الخريجين .

نعم صرنا إلى ذلك كله ، والأمر فيه خطير إذ لم يتدارك ، ولكن لا ينبغي أن نياس ، ولا ينبغي أن ننسى أن ظروف الحياة الدراسية والفكرية في البلاد قد تطورت ، وخير لنا أن نعالج أسباب الضعف بالحزم والقوة والصبر وتوسيد كل أمر إلى من يصلح له ، ويستقيم به ، فإن أكبر الإصلاح أن يباشر الأمور أهل الإصلاح ، أما أن تندب ونستغيث ونتصور الأمور تصوراً المشدوهين المعتلين ، ونربص أن يصلح الله الأحوال ، بأمر من السماء ينزل به جبريل أو سواه من ملائكة الرحمن ، فسيطول تربصنا ، وتكثر متاعبنا ، ولن يجدينا الصياح ولا الدويل .

بين الشريعة والقانون

نظرات في توثيق المعاملات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد اللطيف السبكي
المفتش بالأزهر

القدر الذى يتعلق به التوثيق الواجب :

يقول ابن قدامة : « ويختص ذلك — أى التوثيق — بما له خطر ، فأما الأشياء القليلة الخيار ، كحوائج البغال والقطار وشبهها ، فلا يستحب فيها ، لأن العقود فيها تكثر ، فيشق الإشهاد عليها ، وتقبح إقامة البينة عليها والترافع إلى الحاكم ، بخلاف الكثير . »

فإن قدامة ، ومن ذهب هو مذهبهم ، فى نذب الاستيناق ، يخصون النذب بما كان كثيرا ، وأما القليل : فيقبح عندهم التوثيق فيه ، لما ذكروه من كثرة التعاقد فيه ، ومشقة التوثيق فى هذه الكثرة ، وهذه تفرقة بين الكثير والقليل من عندياتهم ، تخالف الظاهر من عموم الأمر ، وتخالف قول سعيد بن جبير : أشهدوا على حقوقكم ، إذا كان فيها أجل : ومن قوله : أشهد على حقتك ، على كل حال . فلم يتعرض لتفصيل ، بين قليل وكثير ، فكان دليلا على التعميم كذلك .

وأوضح من هذا فى الدلالة على التعميم ، قول ابن جريج : سئل عطاء : أبشده الرجل على أن بايع بنصف درهم ؟ قال : نعم ؛ هو تأويل قوله تعالى : « وأشهدوا إذا تباعتم » ، وكذلك روى المغيرة عن إبراهيم قال : يشهد ولو على سَفْتَجَةٍ بقل — حزمة — وإن لم يبين فى هذا النقل من إبراهيم ؟ وذلك كله يتمشى ظاهرا مع ما روى عن ابن عمر أنه كان يشهد على البيع المنجز ، إذ لم ينقلوا عنه تفرقة بين القليل والكثير .

فنحن الآن بين ثلاثة آراء في تقدير الدين ، أو الثمن الذى يؤخذ فيه بالتوثيق .

(١) رأى يتجه الى وجوبه فى القليل والكثير ، كما نقل عن عطاء .

(٢) ورأى يذهب الى الندب فى القليل والكثير ، وهم : أحمد والجمهور ، وقد حكاه الجصاص وسواه .

(٣) والرأى الثالث : ما نقلته عن ابن قدامة ومن يوافقه من ندب التوثيق فى الكثير ، وقبحه فى القليل لحاجة العطار والبقال .

والناظر فى هذه الآراء يلمح من بينها أن للعرف دخلا فى التقدير ، وترجيح رأى على رأى ، فالقول بالوجوب لا يطرد فى كل جليل وصغير ، وإلا كان إعتنا ، وضغطا على الناس ، فى إنجاز المصالح التى يراها الإسلام ، ويقصد إلى تيسيرها . والقول بالندب عامة لم يستقم ، وقد توسعت فى تفنيده سابقا .

والقول بقبح الاستيثاق فى القليل على ما يرى ابن قدامة وموافقوه لا يطرد فى كل قليل ، إذ القليل يختلف باختلاف العرف ، وحالة المتعاملين ، فالرغيف والليمونة والبطيخة ، وأفة من الفاكهة ، من القليل الذى لا يبلغ مبلغ الاهتمام به عند أواسط الناس ، مما يتناولونه فى حوائجهم ، كصندوق من الصابون ، وعدل من الأرز ، ووسق من التمر ، وثوب من القماش ، أو ما قارب هذا كيلا أو وزنا . فلكلام ابن قدامة مبنى على مراعاة العرف ، والموازنة بين قليل تافه ، وقليل بالإضافة الى الخطير . وإذا رجعنا الى الآية الكريمة ، وما نقل من الآثار ، مع الاستئناس بأعراف الناس ، أمكن أن نستظهر وجوبا ، وندبا ، وإباحة ؛ فالوجوب يستفاد من صيغ الأمر فى أول الآية ، وهو يتعلق بما كان خطيرا عرفا ، والندب يتعلق بما لم يكن تافها ولا خطيرا ، والإباحة تتعلق بالتجارة الحاضرة التى نص القرآن على استثنائها من الأمر بالتوثيق . وبيان هذا التفصيل من وجهين :

١ — الوجه الأول : وهو يتفق فى مغزاه مع كلام الشيخ محمد عبده ، أن آية الدين جاءت بعد آيات الربا ، ولما كان فى آيات الربا نهى عن قليله وكثيره ، وفيها تحذير شديد ، وإنكار ووعيد ، وفيها تنبيه إلى الموعظة ، وأمر بانظار

المعسر حتى يتمكن ، وحث على التصديق بالعفو عن المعسر الذي لا يجد ، وفيها حث على التقوى وتذكير باليوم الآخر .

أقول : لما كانت آيات الربا بهذه المثابة ، وكانت حافلة بالتوجيهات الآتفة ، كانت من شأنها أن تصرف الناس عن التشبث بالدين ، وترغبهم عن التعلق بالأموال ، وتوهمهم أن الشريعة تمنحهم إلى التساهل كثيرا في الحقوق ، وخاصة إذا راعينا أن الصحابة كانوا يستمعون القول ، فيسبق بعضهم بعضا إلى المبالغة في الطاعة أكثر مما يطلب إليهم ، ونحن لا ننسى أن ابن عمر وآخرين ، سمعوا وعظا من النبي صلى الله عليه وسلم في فضل الصدقة والصوم والصلاة ، فاعتزم كل منهم أن يلازم عبادة تخيرها ، ويتجنب زوجه ، والاشتغال بالدنيا ، لولا أن صرفهم النبي عليه السلام عن الإفراط ، وعلمهم أن هناك حقوقا أخرى للبدن ، وللزوجة والأولاد ولمودة الناس ، وعلمهم أنها حقوق تراعيها الشريعة أكثر مما زعموا . ولا ننس كذلك أن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه رغب أن يتصدق بماله كله ، فمنعه النبي صلوات الله عليه عن السكل إلى الثلث ، وقال له في المشهور : « إنك أن تترك ورثتك أغنياء ، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

أقول : لما كان فيما سبق من آيات الربا ، ما يورم غير المقصود ، اقتضت الحكمة أن تكون آية الدين ، محبة للناس في المال ، مشيرة إلى فضله ، حائة على صيائنه ، وعدم التفريط فيه ، إذ في التهاون مضیعة للأولاد ، وتعرض للأفلاس ومذلة الحاجة .

وقد كشف عن هذه المعاني ، حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « نعمنا المال الصالح للعبد الصالح » . رواه أحمد والطبرانی وكذلك قوله عليه السلام : « إن الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة الأموال » .

لذلك كانت صیغ الأمر في صدر الآية ، لإيجاب الاستيثاق في الديون ، وصرفهم عما توهموا ، غير أنه لا يعقل أن تكون الديون التي جرى فيها الربا بينهم ، ولم يكونوا ينظرون المدين فيها ، والتي نزلت بسببها آية التوثيق ، لا يعقل أن تكون درهما أو دريهمات ، وإنما المعقول والمعهود أن تكون مما يتعلق به

الحرص ، ويعتمد بشأنه ، ويمكن استغلاله بالربا أو بسواه ، وأن تكون ديونا يعجز عنها المدين أو يكاد ، ويكون الأنظار بها رفقا .

وهذا الاعتبار يترجح عندي الى شبه اليقين ، أن التوثيق المأمور به في الآية الى قوله : ولا تسأموا ، واجب في الديون التي كانوا يهتمون بها ولا يزالون ، دون النافه اليسير .

قد يقال : إن الحل على هذا يتضح لو كانت آيات الربا والدين نزلت دفعة واحدة ، كما هي مرتبة في التلاوة ، حتى يكون بينهما ارتباط في السياق ، ويكون الوهم الناشئ من الاولى مدفوعا بالثانية ، وتكون الثانية من الاولى بمنزلة البيان الذي اتحد مع المبين ، في وقت نزوله ، والحاجة اليه .

والجواب : أن في هذا أقوالا ، وقد رجح السيوطي القول باتحاد هذه الآيات في وقت النزول ، وذلك في كتاب الإتيان ، حينما عرض للروايات المختلفة في آخر ما نزل من القرآن : هل آخر ما نزل هو آية الربا ، أو آية الدين ، أو ما توسط بينهما ، من قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » ، فقال : ولا منافاة عندي بين هذه الروايات ، لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف ، ولأنها قصة واحدة فأخبر كل من الرواة المختلفين عن بعض ما نزل ، بأنه آخر ما نزل ، وذلك صحيح . انتهى كلام السيوطي :

والى كلام السيوطي أطمئن ، وعليه أعتمد في الإجابة عن السؤال الذي افترضه ، وبهذا يظهر وجه التناسق بين الآيتين ، ويتضح ما قلت : من أن الصيغ الاولى ، لإيجاب التوثيق في الديون الخطيرة ، دفعا لما ينشأ من آيات الربا . ورب معترض على هذا الوجه يقول : إذا سلمنا لك أن آيات الربا ، وما فيها من زجر ووعيد منشأ للوهم الذي اقتضى الأمر بالتوثيق لدفعه ؛ فالمقبول أن نترك صيغ التوثيق على وتيرة واحدة في الإيجاب أو النذب ، كما صنع الاولون ؛ من غير تقسيم منك لها الى ما يدل على وجوب ، وما يدل على نذب ، ولكنك تجاوزت هذا ؛ فملت صدر الآية على إيجاب التوثيق فيما كان ذا شأن من الديون ، وهذا تخصيص للفظ العام بخصوص السبب وهو خلاف القاعدة المسلم بها . المعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أو تخصيص بلا مخصص .

والجواب : أولا — أن الوهم الناشئ سبب في ربط الآيتين ببعضهما ، وليس وحده سبب النزول . ولم أقل بذلك ، فلا يقال إنني خصصت العام بسبب خاص .

وأما سبب النزول : فأمر عدة : منها دفع ذلك الوهم ، وإقرار المسلمين على ما كان معمولاً به من السلم على ما أشار إليه المفسرون ، وبيان ما يلزم في الشاهد وفي الكاتب وفي المحل : من الأمانة ، والتحرى وما إليهما مما تضمنته الآية . ولا مانع من مراعاة أمور عدة ، يكون مجموعها سبب النزول .

والجواب : ثانياً — أتى لم اعتبر صيغ التوثيق في صدر الآية عامة في كل دين ، كما اعتبرها السابقون ، حتى يعترض على بما سلف : بل أفهم أن المقصود منها لأول وهلة هو إيجاب الاستيقاق فيما كان ذا بال من الديون والحقوق ، أيا كان نوعه : من قرض ، أو عرض سلع ، أو ثمن مبيع ، أو أجره عمل ؛ فالجواب الأول : على التسليم بعموم صيغ التوثيق ، والثاني : على المنع .

أما نقد الخطير من غيره ، وتمييز هذا من ذاك ، فوكول إلى العرف بين الناس ، حسبما تقضى عوائدهم وأحوالهم ، ونحن نرى ونعلم أن خمسة ، وعشرة جنهات ، قد تعتبر ديناً قافها عند الناس ، وخطيراً عند آخرين ، من يقع الشجار بينهم ، لاختلافهم على خمسين قرشاً . وقد قدرته الشريعة في مواضع ، كنصاب الزكاة ، وقدر ما يجب فيه ، وكالدية ، والكفارات ، وكالنصاب الموجب للقطع في السرقات .

أما التعامل الذي لا يقف نظامه وتطوره عند حد ، فإلى العرف نحتكم في شأنه ، ونرجع في تقديره . كما نحتكم إليه في تقدير المهر ، والنفقات ، وقيم المتلفات ، وبالعرف نهتدى في تقدير ما يجب ، وما لا يجب الاستيقاق فيه ؛ وقد أقرت الشريعة العمل بالعرف الصحيح ، كأصل من أصولها ، تيسيراً على الناس ، وإفساحاً لهم في مجال الحياة ، فرجوعنا إليه يعتبر عملاً بأصل مشروع .

ذلك كله أحد الوجهين في تفصيل ما استظهرته ، من تقسيم التوثيق : إلى واجب ، ومندوب ، ومباح . وموهداً العدد القادم ، إن شاء الله .

القتل غير في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المتعال الصعيدي
الأستاذ في كلية اللغة العربية

يحملني على الكتابة في هذا الموضوع ، أن بعض من كتب في السيرة النبوية من علماء أوربا ، يستنكر ما حصل من النبي صلى الله عليه وسلم من الأمر باغتيال كعب بن الأشرف اليهودي وغيره ، لأنهم يدعون أن في هذا القتل شيئاً من الغدر ، فلا يصح أن تقره شريعة من الشرائع ، ولأن هذا أيضاً ليس من شأن الحكومات مع الأفراد ، بل الذي من شأنها أن تأخذهم علناً بحكم القانون ، فمن يستحق القتل أخذه علناً ، أما الاغتيال فهو من شأن بعض الأفراد مع بعض ، ويجب أن يؤخذوا عليه بالعقاب ، لما فيه من الاعتداء على سلطة الحكم .

وإذا أردنا أن نعرف الحكم الحقيقي لهذا القتل في الإسلام ، وجب أن ننظر نظرة إجمالية في السيرة النبوية إلى وقوعه فيها ، لنعرف الأسباب الصحيحة التي أدت إليه ، ونعطيه الحكم الصحيح الذي يليق بهذا الدين العادل ، ويليق بما جاء به ، من إشار النظام على القوضى ، وكان من حسن بلائه في ذلك أن أقر حكم القانون في بلاد العرب ، فخضعت له بعد أن كانت في جاهليتها لا تخضع لشيء ، وكان كل فرد فيها يأخذ حقه بنفسه من غيره ، فتضيع في ذلك حقوق الضعفاء ، ويكون الحق للقوة وحدها .

لقد قضى النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة ، كان فيها في قلة وضعف ، وقد أودى فيها أتباعه أشد أذى ، وعذبوا فيها أقصى عذاب ، وقد قتل في هذا العذاب بعضهم ، ومن قتل منهم سمية أم عمار بن ياسر ، رضى الله عنهم ، عذبها آل المغيرة على إسلامها لترجع عنه ، فكانت تأتي إلا الإسلام ، وتحمل فيه عذابهم ، حتى ماتت تحته ؛ وكذلك مات فيه زوجها ياسر .

وقد انتهت هذه المدة على طولها في مكة ، فلم يحاول أحد من المسلمين أن يثار لما حصل لهم من التعذيب والقتل باغتيال واحد من كانوا يعذبونهم أو يقتلونهم ، مع أن هذا كان سهلاً عليهم ، لأنه لم يكن في مكة حكومة منظمة ، تحمي أهلها من حوادث الاغتيال ، ولكن الإسلام دعوة سلمية بريئة ، فهو إنما يأخذ الناس علناً بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، ولا يدخل في دعوته أخذ الناس إليها بأية وسيلة من وسائل الإرهاب ، كاغتيال خصوم الدعوة ونحوه ، مما يخيفهم من مناوراتها ، ويحملهم على الانضمام إليها ، خوفاً من شر أهلها ، وهذا أيضاً إلى أن الإسلام ، دين سياسة ، ولم يكن من حسن السياسة اغتيال أحد ممن كان يعذب المسلمين ، ويقتلهم في مكة ، لأنهم كانوا في ضعف وقلة ، فلو اقتصوا لواحد منهم بهذه الوسيلة ، لتفاقم الخطب عليهم ، ولعمد خصومهم إلى قتلهم جميعاً ، فلا تجد دعوتهم أحداً يؤمن بها ، وهنا يكون الانتقام الإلهي بأية من آيات العذاب ، فتفضي على خصوم هذه الدعوة . كما قضوا على أنصارها ، ومثل هذا لم يكن مراداً لدعوة الإسلام الخالدة ، وإنما كان يراد أخذ خصومها بالوسائل السلمية ، إلى أن يؤمنوا بها ، وتبقى دعوة خالدة ، إلى ما يشاء الله أن تبقى .

ثم كان بعد ذلك أن انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فمكث فيها عشر سنين إلى وفاته ، وقد انقسم أهلها عليه قسمين : قسم آمن به إيماناً صادقاً ، وناصره على أعدائه بنفسه وماله ، وقد كان هذا القسم يشمل جمهور أهل المدينة : وقسم نافق في الإسلام ، فأبطن الكفر وأظهر التسليم للدعوة ، ولم يخلص للمسلمين كما أخلص لأعدائهم ، فكان يحسب من المسلمين لإظهاره الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل منه هذا الخضوع الظاهري مع علمه بما يبطنه من الكفر ، ويجري عليه أحكام المسلمين الصادقين ، لأنه أمر أن يحكم بالظاهر ، والله يتولى السرائر ، ولكنه كان مع هذا يذم النفاق والمنافقين ، من غير أن يخص بهذا الذم شخصاً منهم ، ليحذر المسلمون الصادقون دسائسهم ، ولا يتأثروا بشيء من مؤامراتهم في السر .

وقد كان هؤلاء المنافقون يلحقون بدسائسهم ومؤامراتهم ، كثيراً من الأذى بالمسلمين ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكتفي بإفساد هذه المؤمرات عليهم ، ولا يأخذهم بالقتال كما كان يأخذ من يجاهره بالعداء ، ويصارحه

بالقتال ؛ لأن الإسلام لا يقاتل إلا من يقاتله من أعدائه ، ولهذا يؤثر السلم مع من يسلمه منهم ، ولو لم يكن مخلصاً في إظهار السلم ، كما قال تعالى في سورة الأنفال : « وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهُا ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ، فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، الْآيَتِينَ ٦١ ، ٦٢ من سورة الأنفال .

وقد مكث هؤلاء المنافقون يناوئون الإسلام في المدينة سرّاً ، ويخدمون أعداءه بالتجسس لهم على المسلمين ، فإذا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم شيء من مناوأتهم أتوا إليه ، فتهربوا عما بلغه ، فيكتفي منهم بذلك ، وهو يعلم كذبهم ، ولا تحدّثه نفسه بأن يتخلص منهم بطريقة تناسب نفاقهم ، بأن يأمر باغتيالهم في السر ، فيتخلص منهم بهذه الطريقة التي يلجأ إليها من يقبل مثلها في دعوته ، وقد استأذنه عمر بن الخطاب يوماً في أن يقتل عبد الله بن أبي رئيس المنافقين ، فنهاه عن ذلك وقال له : فكيف يا عمر إذا تحدّث الناس : أن محمداً يقتل أصحابه . وكذلك روى عدي بن الحيار : أن رجلاً سار إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يدروا ما ساره ، حتى جهر رسول الله ، فإذا هو يستأذنه في قتل رجل من المنافقين ، فقال له : أليس يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادة له . فقال له : أليس يصلي ؟ قال : بلى ، ولا صلاة له . فقال له : أولئك الذين نهانى الله عنهم .

وإنما لم يلجأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذه الوسيلة مع أولئك المنافقين ، لما سبق من أنها لا تدخل في دعوته ، ولأنهم دخلوا في حكمه ظاهراً ، فيجب أن يؤخذوا على جرائمهم بما يليق بشأن الحكومات مع أفرادها بقطع النظر عن دياناتهم وعقائدهم ، فإذا ثبتت عليهم جريمة أخذوا بها علناً ، وللحاكم أن يغضى عن بعض هذه الجرائم لمصلحة توجب الإغضاء عنها ، ولا يصح أن يؤخذوا على جرائمهم بوسيلة من الوسائل السرية ، لأن مثل هذا ينشر الفساد في الوطن ، وهو سلاح ذو حدين ، فإذا لجأت إليه الحكومة في معاقبة أفراد رعيّتها ، لجؤوا إليه أيضاً في التآمر من رجالها ، وفي هذا يخفى وجه الحق ، ولا يظهر كما يظهر في أخذ الناس علناً بحكم القانون .

وبهذه النظرة الإجمالية في السيرة النبوية ، يمكننا أن نحكم بأن الإسلام

لا يبيح اللجوء إلى الاغتيال بين أبناء الوطن الواحد لسبب من الأسباب ، بل يجب أن يكون الحكم بين أبناء الوطن الواحد للقانون وحده ، وأن يكون أخذ الناس به في العلن لا في السر .

والذي حدث من الاغتيال بإذن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بين أبناء الوطن الواحد ، وإنما حدث لنفرين أو ثلاثة من أعداء المسلمين ، ولم يكن للمسلمين سلطة عليهم ، حتى يمكنهم أن يأخذوهم بحكم القانون ، ويقتصوا منهم علناً ، كما يقتص من كل فرد يخضع للحكم .

ومن هؤلاء الاثنين أو الثلاثة ، كعب بن الأشرف اليهودي ، وقد كان من أشد الناس عداوة للمسلمين ، حتى بلغ من أمره أنه لما بلغه قتل أشراف قریش في غزوة بدر ، قال : أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان — بشيرا النصر إلى أهل المدينة — وهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها .

وكان لكعب سطوة كبيرة بين أهل الحجاز ، وكان له مال كثير ، يقرب به العرب ، وكان يقول الشعر ، فأخذ يحرض بشعره العرب على المسلمين ، ولم يكتف بهذا التحريض الذي قد يحتمل من عدو ، بل أخذ يشببُ بنساء المسلمين ، ويرميهم بالسوء ، وكان لا يخشى أمر المسلمين ، لما كان له من الحصون التي يجتمعي بها ، والأتباع الذين يقاتلون عنه .

ولا شك أن مثل هذا لا يمكن أن يؤخذ بحكم القانون في سلم ، وإنما هي الحرب التي يمكن الثأر بها منه ، وللحرب وسائلها التي تؤدي إلى أغراضها ، وقد يستباح فيها من الخدعة وغيرها ما لا يستباح في السلم ؛ وقد كان جمهور اليهود ، إلى هذا الوقت ، في سلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ما عدا كعباً وأتباعه ؛ فرأى من حسن السياسة أن يأخذه بهذه الوسيلة التي لا تنير أحداً ، وآثرها على حرب قد تجمع حول كعب من العرب واليهود ما هو في غنى عنه ، وآلمهم في هذا أن كعباً كان عدواً للمسلمين ، ويستحق القتل ، وأنه لم يكن للمسلمين سلطة عليه حتى يأخذوه باسم القانون في العلن ، ولا يضر بعد هذا أن يكون قد أخذ بالقتل غيلة أو غيره ، لأن الحرب يستباح فيها قتل الأعداء ؛ فإذا قتل واحد منهم غيلة كان من الحق أخذ هذا على عدوه .

بين مالك والليث

— ١ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله المراغي

مدير المساجد

يطيب لنا أن نذكر الناس اليوم بإمامين جليلين ، هما مالك بن أنس لإمام دار الهجرة ، والليث بن سعد لإمام مصر كنفانة الله في أرضه : وقد قام بينهما قديما جدل حول مسائل دينية ، وكان نقاش وحجاج أضفيا عليه ثوبا من الاحترام المتبادل رغم ما في هذا الجدل من شدة بلغت الذروة . ولعل في هذا ما يحمل الناس على انتهاج طريق الحكمة والسداد عند تبادل الآراء ، والدفاع عن وجهات النظر المختلفة في شتى شؤون الحياة ؛ فإن ذلك أدعى الى صون علاقات الود ، وأدنى الى دوام المحبة ، وأقرب الى الوصول الى الحق .

وقبل أن نسوق هذا الجدل ، نحب أن نترجم لكلا الإمامين فيما يلي :

مالك بن أنس

نسبه :

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي المدني ، إمام دار الهجرة أحد الأئمة الأربعة . وإليه تنسب المالكية ، ويكنى بأبي عبد الله . والأصبحي بفتح الهمزة وسكون الصاد وفتح الباء الموحدة ، نسبة الى ذى أصبح ، واسمه الحارث ، من أجداد مالك ، وينتهي نسبه الى يعرب بن قحطان وهي قبيلة كبيرة باليمن .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بالمدينة سنة ٩٣ هـ ولما شب حفظ القرآن ومالت نفسه الى طلب العلم . ويحدث مالك عن ذلك فيقول : قلت لاسى : أأذهب فأكتب العلم ؟ فقالت : تعال فالبس ثياب العلم فألبستى ثياباً مشمرة ، ووضعت الطويلة على رأسى ، وعممتنى فوقها ، ثم قالت : اذهب فأكتب الآن . وكانت تقول : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه ، وكان مالك يختلف إلى ربيعة وإلى ابن هرمز يسمع منهما ويسألهما ؛ كما أخذ القراءة عن نافع بن أبي نعيم ، وسمع الزهري ونافعاً مولى ابن أبي عمر . ولقد صبر مالك على طلب العلم ولاقى في سبيل ذلك الشدائد . قال ابن القاسم : أفضى طلب العلم بمالك إلى أن تقض سعة بيته ، فباع خشبه ، ثم أقبلت عليه الدنيا بعد ذلك وقد تهرم مالك في علوم شتى وخاصة الحديث والفقه . وقد روى عنه أنه قال : كتبت بيدي مائة ألف حديث . وقال أيضاً : كنت آتى سعيد بن المسيب وعروة والقاسم وأبا سلمة وحمداً وسالمًا ؛ فأدور عليهم أسمع من كل واحد من الخمين حديثاً إلى المائة ثم أنصرف ، وقد حفظت كله من غير أن أخلط حديث هذا بحديث هذا . قال ابن عينة : ما رأيت أجود أخذاً للعلم من مالك ، وما كان أشد انتقامه للرجال والعلماء .

وقال أيضاً : دارت مسألة في مجلس ربيعة وتكلم فيها ربيعة ، فقال مالك : ما تقول يا أبا عثمان ؟ فرد عليه ربيعة رداً ما يسر أحداً أن يقال له ، ومالك ساكت احتراماً لشيخه ، ثم انصرف وجاء وقت الظهر ، فصلى بالمسجد وجلس وحده بعيداً عن مجلس ربيعة ، فجلس إليه قوم خدشهم ، فلما كان الغد اجتمع إليه خلق كثير ، ثم صار يجلس إلى الناس يحدّثهم ، وهو ابن سبع عشرة سنة ، وعرفت له الأمانة في النقل والرواية ، وبالناس يومئذ حياة وبقظة . قال ابن عبد الحكم : أفتى مالك مع يحيى بن سعيد وربيعة ونافع ، وهم شيوخه . وقال مصعب : كان لمالك حلقة في حياة نافع ، أكبر من حلقة نافع ، وكان مالك يقول : ما جلست للفتيا والتعليم حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم . وقال : لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس لها أهلاً .

عليه وصلاحه :

أسلفنا القول في شهادة بعض أكابر العلماء في ذكاء مالك ونبوغه ، ومنهم شيوخه ، والواقع أن مالكا عرف بالتبحر في العلم منذ صباه ، وكان عليه مقرونا بكثير من التواضع ، والصلاح والأمانة ، مع إحاطة بالكتاب والسنة ، والفقه وأصوله ، مع صدق الرواية والتثبت فيها ، وحسن التوثيق ، حتى أجمع الناس عليه في عصره ، واقتدى به الأكابر .

ولقد كان شيوخ أهل المدينة يقولون : ما بقي على ظهر الأرض أعلم بسنة ماضية ولا باقية منك يا مالك . ويقول ابن مهدي : ما بقي على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من مالك . وقال أبو داود : أصح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك عن نافع ، عن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، ثم مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه ، ثم مالك عن أبي الزناد الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه ، ولم يذكر سلسلة أخرى عن غير مالك . وقال : مراسيل مالك أصح من مراسيل سعيد بن المسيب ، ومن مراسيل الحسن البصري ، ومالك أصح الناس مراسلا . وقال سفيان : إذا قال مالك بلغني ، فهو إسناد قوى . وناظر محمد بن الحسن الشيباني الإمام الشافعي يوما فقال : أيهما أعلم : صاحبنا ، أم صاحبكم ؟ يعني أبا حنيفة ، ومالك رضى الله عنهما ، قال الشافعي : قلت على الإنصاف ؟ قال : نعم ، قلت : فأشهدتك الله من أعلم بالقرآن : صاحبنا ، أم صاحبكم ؟ قال محمد : اللهم صاحبكم ، قلت : فأشهدك الله من أعلم بحديث رسول الله ، صاحبنا أم صاحبكم ؟ قال : اللهم صاحبكم ، قال الشافعي رضى الله عنه : فلم يبق إلا القياس والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء ، فسكت محمد . وكان مالك معروفا بالصلاح والتقوى ، يشهد الصلوات والجنائز ، ويعود المرضى ، ويقضى الحقوق ، ويجلس في المسجد فيجتمع إليه أصحابه ، فيعطى كلا مسألته ، وكان شديد التحري في حديثه وفتياه ، لا يحدث إلا عن ثقة ، ولا يفتي إلا عن يمين ، وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ، فقد كان مهيبا نبيلًا جليلا ، لا يعتري مجلسه شيء من المراء واللفظ ، ولا رفع الصوت . وحسبك في مهابة وجلاله : أن هارون الرشيد الخليفة العباسي كتب إليه ليأتيه فيحدثه ، فقال مالك : العلم يؤتى !

فقصده الرشيد إلى منزله فجلس واستند إلى الجدار ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، إن من إجلال رسول الله لإجلال العلم ، فجلس بين يديه مستويا ، فحدثه . وعرف عن مالك أنه إذا أراد أن يحدث توضأ ، وجلس على صدر فراشه ، وسرح لحيته ، وتمكن في جلسته ، فسئل عن ذلك ، فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان لا يركب في المدينة ، حتى مع تقدم سنه وضعفه ، ويقول : لا أركب في مدينة دفنت فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان مالك لا يتول إلا ما يعتقد : سئل يوما عن يمين المكره ، فقال : لا تلزم . فوشى به إلى جعفر بن سليمان وإلى المدينة عم المنصور العباسي ، وقالوا : إن مالكا لا يرى إيمان ببعثكم لازمة ، فاستدعاه وجرده ، وضربه سبعين سوطا انخلعت فيها كتفه ، وكأنما كانت هذه السياط تيجان مجد ، وأوسمة شرف ، فقد علت منزلته في نفوس الناس ، وازداد قدره .

تلاميذه :

تلمذ لمالك جبهة من أكابر العلماء ، وما عرف عن عالم تلمذ له كثير من شيوخه وأكابر أقرانه سوى مالك . وقد عد القاضي عياض من تلمذوا له من هؤلاء وهؤلاء فنيفوا على الألف من مشاهير العلماء سوى من لم يشتهر ، أو لم يعرف . فمن شيوخه الذين رووا عنه : محمد بن مسلم الزهري ، وقد مات قبل موت مالك بخمس وخمسين سنة ، وربيع بن أبي عبد الرحمن ، وقد توفي قبل مالك بست وثلاثين سنة ، ويحيى بن سعيد الأنصاري ، وقد توفي قبل مالك بثلاث وأربعين سنة ، وموسى بن عقبة وهشام بن عروة ، ونافع بن أبي نعيم الأنصاري ، ومحمد بن عجلان ، ومسلم بن أبي أمية ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب ، وعبد الملك ابن جريح ، ومحمد بن إسحاق صاحب المغازي ، وسليمان بن مهران الأعشى .

ومن أقرانه : سفيان بن سعيد الثوري ، والليث بن سعد المصري ، والأوزاعي ، وحامد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، وحامد بن سلمة ، وأبو حنيفة وابنه حماد ، وأبو يوسف القاضي ، وشريك بن عبد الله القاضي ، والإمام الشافعي ، وبعدهم عبد الله بن المبارك ، ومحمد بن الحسن ، وموسى بن طارق القاضي ، والوليد بن سليم ، ومن أصحابه عبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وأشهب بن عبد

العزير، وزيا بن عبد الرحمن القرطبي، وبجي بن يحيى بن كثير الليثي، وأبو الحسن علي بن زياد التونسي، وأسد بن الفرات، وعبد الملك بن عبد العزيز المساجشون . مؤلفاته :

أشهر مؤلفات مالك : الموطأ . وسبب تأليفه أن أبا جعفر المنصور قال لمالك : ضع للناس كتاباً أحلهم عليه ، وجنبه شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن عباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود . فقال مالك : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في البلاد ، فأفتى كل في مصره بما رأى . ويروى : أن الذي كلفه في ذلك هو المهدي ، وأن مالكا أبي أن يحمل الناس على مذهبه ، ثم وضع الموطأ . قال أبو زرعة : لو حلف رجل بالطلاق على أحاديث مالك التي في الموطأ أنها كلها صحاح لم يحنث .

ولمالك مؤلفات جلية ، مروية عنه أكثرها بأسانيد صحيحة غير الموطأ ؛ من أشهرها رسالة في القدر ، والرد على القدريّة وهي تدل على سعة علمه ، ومنها كتاب في النحو ، وحساب مدار الزمان ، ومنها رسالته في الأفضية في عشرة أجزاء ، ورسالته إلى أبي غسان محمد بن المطرف في الفتوى ، وكتابه المشهور إلى هارون الرشيد في الآداب والمواعظ ، وكتابه في تفسير غريب القرآن ، ورسالته إلى الليث بن سعد في إجماع أهل المدينة وغيرها .

أدلتة الاجتهادية .

يستند مالك في مذهبه على الكتاب والسنة والاجماع ، والقياس إذا لم يكن هناك نص من كتاب ، أو سنة ، ويعطى عمل أهل المدينة أهمية كبرى ، لا سيما أئمتهم ، وفي مقدمتهم أبو بكر ، وعمر . وقد يرد الحديث لأنه لم يجر عليه العمل ، ويقول : إن عدم عمل أهل المدينة به دليل على أن هناك ما ينسخه . ونازعه في ذلك كثير من فقهاء الأمصار ، ومنهم الليث بن سعد المصري . ويقول مالك بالمصالح المرسلة ، وهي أمور لم يشهد لها من الشرع دليل بيطلان ، أو باعتبار ، وذلك كضرب المنهم بالسرقة للاستئطاق : أجازة مالك لأن مصلحة المسروق منه تقتضيه ، ومنها طلاق المفقود زوجها إذا تضررت بالعزوبة ،

وانتظرت أربع سنين بعد انقطاع خبره ، يطلقها الحاكم عند مالك ثم تزوج . أخذ في ذلك برأى عمر . ومن ذلك عدة المطلقة ونفقتها تدعى عدم الحيض . قال مالك : نعتد ثلاثة أشهر ، ثم تنتظر تسعة أشهر مدة الحمل ، فالجُموع سنة ، ولا نفقة لها أكثر من ذلك . وله غير ذلك .

وفاته :

توفي رحمه الله ، سنة ١٧٩ هـ بالمدينة المنورة ، وصلى عليه عبد العزيز بن محمد ابن إبراهيم بن محمد بن علي بن عباس ، وكان والياً بعد أبيه على المدينة ، ومشى في جنازته وحمل نعشه .
• يتبع ،



قال النبي صلى الله عليه وسلم : كن عالماً أو متعلماً ، ولا تكن الثالثة فتهلك .
وقال عبد الله بن عباس : منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال .
وقال هو أيضاً : ذلت طالباً ، فعززت مطلوباً .
وقال رجل لأبي هريرة : أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه ، قال كفاك بترك طلب العلم إضاعة له .

وقال عبد الله بن مسعود : إن الرجل لا يولد عالماً ، وإنما العلم بالتعلم .
وقال شاعر :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وقال آخر :

تعلم فليس المرء يخلق عالماً وما عالم أمراً كمن هو جاهل

مفردات فلسفية

حرية (تتمة)

نقد و تعليق

لفضيلة الاستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
الاستاذ بكلية أصول الدين

نقد :

١ — المعنى : أو المعنى العام لكلمة حرية ، وهو حالة من لا يعاني إكراها ، ومن يتصرف حسب إرادته وطبيعته ، يراد عادة فيما يختص بالأعمال الإنسانية ، ويسمى هذا النوع من الحرية بالحرية الطبيعية ، وهي التي تنقص المريض والاسير ومحوهما .

والتعريف هنا غير جامع ؛ لأن حالة من لا يستطيع فعل ما يريد لنوع أدبي أو مصلحي من الإكراه يدخل غالبا في نفس هذا النوع من الحرية . ومن مثل ذلك الرجل الذي لا يستطيع أن ينتخب في الناحية التي يهواها مخافة أن تضع عليه فائدة ، والمريض الذي لا يستطيع عمل ما يريد مخافة ازدياد المرض ، لا بسبب عدم الاستطاعة الطبيعية أى الجسدية . إذاً يكون الاوفق التعبير عن هذا الضرب من الحرية بالحرية الخارجية ، لا الحرية الطبيعية .

٢ — الحرية بالمعنى السياسي لا يمكن أن تعرف بعدم أى إكراه يمكن أن يقع على الإنسان . فإن هذا المعنى لا يتفق بحال مع وجود الجماعة التي لها من الحقوق ما يجب أن يراعاه الفرد ؛ فلا يستطيع لهذا أحيانا فعل ما يريد . إن الحرية بهذا المعنى تكون إباحة وانطلاقا بلا ضابط ، لا حرية بالمعنى الصحيح .

الحرية السياسية هي إذاً عدم أى إكراه غير مشروع ، ولا يتفق مع طبائع الأمور ، anormale ، . وفي هذا يقف دور كايم ، Durkheim ، في كتابه

قسمة العمل الاجتماعى ص ٤٢٩ ، هذا الإكراه الذى يمنعنا من أن نرضى دون قيد أو حد رغباتنا ، حتى ما كان منها غير معقول ، لا يصح أن يختلط بالإكراه الحق الذى يجرمنا من وسائل نيل ما نستحقه على عملنا من جزاء عادل ، .

تعليق :

يرى الأستاذ هيمون ، Hemon ، أن الحرية بالمعنى النفسى والاخلاقى هى سيطرة المرء على نفسه ، وذلك بعمل العقل المفكر والإرادة ضد الشهوة والهوى . وفى هذا المعنى لدى الرواقين يقول إبيكتيت ، Epictète ، (فى كتابه : المختصر) : « يكون سيدا لهذا الشخص أو ذاك من يستطيع أن يعطيه أو أن يحرمه الأشياء التى يطلبها ، من يستطيع أن ينزل به ما يخاف أو أن يجعله بنجوة منه ؛ إذا فالذى يريد أن يكون حرا عليه ألا يرجو أو يخاف شيئا يملكه غيره ، وإلا فلن يكون حتما إلا رقيقا ، .

وفى هذا المعنى يحاور هذا الفيلسوف الرواقى تلميذا له فيقول :

- هل يستطيع أحد أن يكرهك على عمل ما لا تريد ؟
- نعم هذا من الممكن ؛ لأننى إذا هُذِّدت بالموت أو السجن فعلت ما لا أريد .
- ولكن إذا كنت تحتقر الموت والسجن ، هل تهتم بهذا التهديد فيجعلك تقوم على ما لا تريد ؟
- لا ، طبعاً .

— بعد هذا هل ترى احتقار الموت من الواجب عليك ؟

- نعم ، بلا ريب .
- إذا ، فأرادتك حرة دائماً .

ونحن وإن تنافى مقام تحديد معنى كلمة حرية ومدلولاتها المختلفة باختلاف الفلاسفة والنواحي التى استعملت فيها ، لا يسعنا إلا أن ندعو للتعامل بهذا الفيلسوف فى هذه الناحية .

* * *

ومهما يكن من المعانى التى كلمة « حرية » فى أول الأمر ، وبعد

أن اتسع مدلولها بتطور الزمن واختلاف الافهام ، فإن هذه المعاني - التي رجعنا فيها إلى المعاجم العربية والاجنبية ؛ وبخاصة قاموس د لا لاند ، الذي هو أساسنا دائماً - ترجع ، كما نرى إلى قدرة المرء على أن يفعل ما يريد ، غير مقيد بشئ خارج عن نفسه إلا بالقانون ، ورعاية حق غيره من الافراد ، وحق الصالح العام .

ومما يجب أن يلاحظ في رأينا أن الحرية وإن كانت حقاً طبيعياً للإنسان ، وفي هذا يقول عمر بن الخطاب القولة التي نسبت إليه : « لم تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، الحرية وإن كان كذلك إلا أنها - بكل أسف - قد لا تتفق وسلطان الطبيعة العام ، هذا السلطان الذي يتمثل في ميل الطبيعة إلى أن يسيطر القوى على الضعيف . ومن ثم تكون الحرية نصراً كبيراً وصلت إليه الإنسانية بعد كفاح وبلاء عظيمين .

كما نلاحظ أن الإسلام اعترف منذ ظهوره بهذا الحق الطبيعي للإنسان بما هو إنسان ، وذلك حين يقول القرآن في سورة البقرة : « لا إكراه في الدين ، فمما تحرير لوجدان الإنسان وضميره ، ويتبع ذلك دائماً تحرير فكره وعقله ثم تحرير مظاهر ذلك من عمله .

على أن الذي يمنع المرء عادة من أن يكون حراً ليس هو السلطة القائمة وحدها ، بل هو أنه يجعل نفسه - راضياً - أسير ما يرجوه من خير ، وما يخشاه من شر ، إن أعطى لنفسه حريته ، يخالف بما يقول ويعمل ما يريد الرئيس منه ؛ ومن ثم ، نرى أن للمرء نفسه - إلى حد كبير - أن يجعل نفسه حراً أو رقيقاً .

وأخيراً ، لعل من الخير أن نختم هذا البحث بالإشارة إلى بعض ما ذكره « سبينوزا » في رسالته السياسية عن الحرية .

إنه يرى أنه ليس للدولة أن تحد من حرية الفرد إلا بمقدار ما تخشى من ذلك على كيانها ، وأنه بمقدار ما تقل رقابة الدولة على العقل بمقدار ما تكون عليه الدولة والرعية من صلاح ؛ ولهذا ليس أخطر من أن يمتد سلطان الحكومة إلى عقول الناس وتفكيرهم ونفوسهم ، وأن الهدف أو الغاية التي يجب أن تعمل الدولة لها أن تكفل الحرية لكل المواطنين ، فإن المرء متى ظفر بهذه الحرية لا يكثر بعد هذا بأي ضرب من ضروب الحكومات بسود .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد علي النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

حسناوات

يجرى هذا الجمع لحسناء في الصحف كثيراً . ففي مجلة « الاثنين » ، الصادرة في يوم ١٩٤٨/٢/٢٣ : « هذا الكهل عاش مائة عام وعشرة » ، لترشيمه هؤلاء الحسناوات . وقد جرى بحث فيه من الوجهة العربية : فالمعروف أن ما كان من الصفات على فعلاء لا يجمع بالآلف والتاء ، فلا يقال في حراء : حراوات ، ولا في سوداء سوداوات ؛ وذلك أن الجمع بالآلف والتاء يتبع الجمع بالواو والنون ، فاجمع بالواو والنون جمع مؤنث بالآلف والتاء ، وما لا يجمع بالواو والنون لا يجمع مؤنث بالآلف والتاء ، فلما لم يقل أحرون ، لا يقال : حراوات . وقد عُدَّ الحريري في درة الغواص من أوهام الخاصة وأغلاطهم قولهم : بيضاوات في جمع بيضاء وسوداوات في جمع سوداء ؛ قال (١) : « لأن العرب لم تجمع فعلاء التي هي مؤنث أفعل بالآلف والتاء ، وإنما جمعتها على فَعْل ، . وقد رأيت أن أتوسّع في بحث هذه المسألة ، لأن الحاجة لجمع فعلاء قد تعرض للكتاب والناطقين . ويذكر أهل اللغة ضربين لفعلاء الصفة ، وقد أعرضت هنا عن فعلاء الاسم ، كحجرا ، لأنه لا خلاف في جمعه بالآلف والتاء ، وكذا لو سميت امرأة بسوداء ، لا ينازعك أحد أن تقول في جمعها : سوداوات . ففعلاء الصفة ضربان : ١ - فعلاء مذكراها أفعل ، وهذا هو

(١) انظر كشف الظرة للألومي ص ١٥٣ .

الطريق المألوف والمهيج في فعلاء ، كحمرأ وخضرأ وما إلى ذلك . وهذه يرى أكثر النحاة ألا تجمع بالآلف والتاء ، كما يرى أن مذكروها أفضل لا يجمع بالواو والنون ، وإنما يجمعان على فُعُعل ؛ فأحر وحمرأ جمعهما حُحمر ، وهكذا ما مألوفهما ؛ وهؤلاء يحكمون بالشذوذ في قول الشاعر (١) :

وما وجدت بنات بنى نزار
حلائل أسودين وأحرينا

ومن النحويين فريق يحيز ما حظه الآخرون ، فلا بأس عندهم في جمع حمرأ على حراوات . وقد نسب الرضى (٢) في شرح الكافية هذا الرأي إلى ابن كيسان ، وهو من خلط بين مذهبي البصريين والكوفيين ، وكان صاحب اختيارات . ونسبه المرادى في شرح التسهيل إلى الفراء وجعله قياس قول الكوفيين عامة ، إذ يجيزون في مذكروه الجمع بالواو والنون ؛ قال : « فلا يقال حراوات كما لا يجمع مذكروها بالواو والنون . وأجاز الفراء سوداوات ، وهو قياس قول الكوفيين في جمع أسود بالواو والنون . » وقد استند هؤلاء المجيزون إلى قول الشاعر السابق : حلائل أسودين وأحرينا ، ولم يروا شذوذه كما رآه السابقون ، وهم جمهور البصريين . وواضح أننا إذا أخذنا برأى هؤلاء المجيزين فقد وجدنا مخرجا واسعا في تصحيح حناوات .

٢ — والضرب الثاني : فعلاء صفة لا مذكر لها . وقد عقد ابن سيده في المخصص (٣) لهذا الضرب عدة فصول . ومن هذا الضرب حناء التي أتحدث عنها ؛ إذ لا يقال في مذكروها أحسن ، وإنما أحسن صيغة تفضيل ، ومؤنثه الحسنى ، وجمعه الأحاسن ؛ قال صاحب اللسان : « قالوا امرأة حناء ، ولم يقولوا رجل أحسن . قال ثعلب : وكان ينبغي أن يقال ؛ لأن القياس يوجب ذلك . وهو اسم أنت من غير تذكير ؛ كما قالوا غلام أمرد ، ولم يقولوا جارية مرداء . »

(١) نسبه صاحب الخزائن إلى الأعور الذي يرد به على الكيث الأسدي في ذرايته على الفحطائين وانتصاره لمصر ؛ انظر الخزائن ص ٨٦ بومة بولاق .

(٢) انظر شرح الكافية ص ١٨٧ ج ٢ .

(٣) ص ٥٣ وما بعدها ج ١٦ .

ومن هذا القبيل حلة شوكاء للجديدة ، لا يقال ثوب أشوك ، وكذلك امرأة عجزاء ، ورتقاء ، وعذراء ، وهذه لا مذكر لها من قبل الخلقة والطبع . وإن أردت استقصاء ذلك فارجع إلى المختص .

وأقول في هذا الضرب : إن المجيز للجمع بالآلف والتاء في الضرب الأول يجيز هذا لا محالة ، وأما الممانعون في الضرب الأول فهم في هذا الضرب فريقان :

(أ) ففريق يرى المنع ، وهم السكثرة ، ويستندون في ذلك إلى الحمل على الأكثر ، وهو فعلاء التي مذكرها أفعل ، ومن سنن العرب حمل الأقل على الأكثر في الظاهر اللغوية ، ومن ذلك أن أكرم وأدر يمنعان الصرف وإن لم يرد لهما مؤنث حتى يدري أهو مختوم بالتاء أم لا ، حملا على الأكثر في ذلك وهو غير المختوم بالتاء . فلا يقال عذ هؤلاء : حسناوات ، ولا عجراوات ، ولا عذراوات .

(ب) وفريق يرى أن منع الجمع بالآلف والتاء لمنع جمع المذكر بالواو والنون ، وهذا الضرب لما لم يكن له مذكر ، لا يتحقق هذا المانع ، فيجوز الجمع بالآلف والتاء ، وإمام هؤلاء ابن مالك .

وقد أيد ابن مالك قياسه هذا بالسماح ؛ فقد قال العرب في خيفاء : خيفاوات ، وفي دكاه دكاوات . يقال : ناقة خيفاء ، أى واسعة جلد الضرع ، ونوق خيفاوات وخيف ؛ قال صاحب اللسان : الأولى نادرة ، لأن فعلاوات إنما هى للاسم أو الصفة الغالبة غلبة الاسم ؛ كقوله صلى الله عليه وسلم : « ليس في الخضرأوات صدقة » . وترى في الحكم يندور هذه الصيغة مغمزا في استدلال ابن مالك : على أن له أن يقول : إن النادر إذا كان له وجه من القياس صح القياس عليه ، كما قاس سيويه على شئى ، ولم يرد من بابه غيره . والدكاه يقع وصفا للأكمة المنبسطة ، ويذكر صاحب اللسان أيضاً أن هذا نادر، وهذا لا يحجر على ابن مالك في قياسه لما أسلفت .

وإني أسوق إليك كلام ابن . شرح التسهيل ؛ قال بعد أن ذكر ما يجمع بالآلف والتاء : « و »
فإنهما لا يجمعان بالآلف والتاء
مذكرهما بالواو والنون . ولا يلزم

هذا المنع فيما كان من الصفات على فعلاء ولا مذكر لها على أفعل : نحو قولهم : امرأة عجزاء ، وديمة هطلاء ، وحلة شوكاء : لأن منع الألف والتاء من نحو حرام تابع لمنع الواو والنون من أحمر ، وذلك مفقود في عجزاء وأخواتها ؛ فلا منع من جمعها بالألف والتاء . على أن الجمع بالآلف والتاء مسموع في خيفاء ، وهى الناقة التى خيفت أى اتسع جلد ضرعها ، وكذا سمع في دكاء وهى الأكمة المنبسطة ، وكلاهما نظير ما ذكرت في عجزاء وهطلاء وشوكاء ، في أنهن صفات لا مقابل لها على أفعل . فثبت ما أشرت إليه والحمد لله .

على أن هذه المسألة لا يزال فيها بقية من البحث وفضل من النظر . فإن حسناء كلمة شائعة عند العرب ، ولم يرد هم في جمعها حُسن ولا حسناوات ، وإنما يقولون : نساء حسان ؛ قال في اللسان : وجمع الحسناء من النساء حسان ، ولا نظير لها إلا عجفاء وعجاف . وفي الحق أن هذا ليس بجمع قياسي لفعلاء ، وإنما هو من باب الاستغناء في الباب بشيء من باب آخر . فقد جعلوا للحسناء جمع مرادفها حسنة . فقالوا : حسان ، كما جعلوا العجفاء جمع مرادفها عجف ، فقالوا عجاف . وقد دعاهم إلى ذلك أن يجعلوا عجافا مقابل سمان ونظيرها في الوزن . وهم بما يحملون الشيء على ضده ، كما قالوا : رضى عليه ، حملا على سخط عليه . فكذلك قالوا : حسان في جمع حسناء كما قالوا قباح . وفي قوله تعالى : فيهن خيرات حسان ، فالظاهر أن حساناً جمع حسناء ، لا حسنة .

ومن المقرر عند أصحاب هذا الشأن أن ما استغنى العرب عنه بغيره اطرَح ووجب اتباعهم فيه . فهذا يقودنا إلى حظر حسناوات والتزام حسان ، وهذا هو الوجه في هذه الكلمة ، وإن كان لساننا سلف من الآراء مخرج نتجوز به ونوسع في استعمال حسناوات .

علل لما تقول :

يجرى هذا الاستعمال كثيرا في الأسئلة التى توضع لاختبار الطلاب في

مراحل التعليم ؛ فيقال : أجب عن كذا وعلل لما تقول ، أى اذكر علته ووجهه . والمعلل في مصطلح آداب البحث هو المدعى الذى وظيفته أن يقيم الدليل على دعواه ويستدل ويذكر علته ، ويتقابلة المسافع أو السائل ، وهو الذى يطلب الدليل ، ويبحث فى العلة التى ينصها المعلل . وقد تحدث بعض المعنيين بالعربية فى عربة هذا الأسلوب ، فأردت أن أذكر نبذة تتعلق به .

فيقال : علّل الشارب إذا سقاه مرة بعد أخرى . والاصل فى هذا العَدَّال ، وهو الشرب للمرة الثانية وهو ضد التَّهْل ، وهو الشرب للمرة الأولى ، يقال : سقيته عللاً بعد نهـل ، ويقال : علل الصبي إذا ألهاه عن السكاه بما يتمدح إليه من حلوى وغيرها ، وكذلك يقال فى كل تسلية : قال جرير :

تُعَلِّل — وهى ساغبة — بنينا بأنفاس من الشيم القـراح
وقال خدّاش بن زهير :

كذبت عليكم أو عدوني وعلّلوا بى الأرض والاقوام قردان موظبا
يقول : هدّدوني واهجوني وألهوا بهجائكم لآبائى الأرض والاقوام يا قردان
الموطن المسمّى موظب ، وهو مكان يكثّر فيه القردان ، والقردان واحدها قُرَاد ، وهو دويّبة يلصق بالبعير ويعصّته .
ويقول الشاعر :

خليلٌ هبّا عللانى وانظرا إلى البرق ما يفرى سنا وتبّنا
يقول : عللانى أى حدثانى وألهيانى بالحديث .

وقد يمرض للباحث أن يسأل عن صلة العلة للسبب أو الدليل بالعَدَّال . وبيان ذلك : أن العلة تأتى فى معنى المرض : وكأن ذلك فى الاصل للحمى تعتاد الإنسان بعرقها ورَحَضائها ، فكأنما تسقيه ذلك ، ثم أطلق على كل مرض . واستعملت العلة فى الحدث يشغل صاحبه عن حاجته كأنما هو مرض يكف صاحبه عن مزاوله أعماله ومعالجة أسباب عيشه . واستعملت العلة أيضا فى العذر يعتذر به الإنسان عن لوم يوجبه إليه فى التقصير فى بعض الأمر ، والاصل فيه المرض ؛ فإن المريض يسقط عنه اللوم والمعتبة ، والله تعالى يقول :

ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، .
ولما كان العذر سببا يتمسك به المعتذر أطلق العلة على السبب ؛ وتقول عائشة
رضي الله عنها في حديث لها عن أخيها عبد الرحمن : كان عبد الرحمن يضرب
رجلي بعلة الراحلة أى بسببها : يظهر أنه يضرب رجل الراحلة وإنما يضرب
رجل عائشة رضي الله عنها . وأطلق العلة من هذا على الدليل يستدل به المدعى
إذا كان سببا في تمكين ما يقول ويدعى .

وبعد هذا أقول : إن ذكر التعليل في معنى ذكر العلة لانراه في المعاجم
بأدبا سافراً ، فالذى فيها هو المعنى إلى وما يؤتى إليه . ومن ثم أنكر بعض
الباحثين هذا الاستعمال الذي صارت له أبحاث . غير أن صاحب اللسان أورد
في المادة هذا الص - وما أى تعتذر - : المعلنل : دافع جاني الخراج
بالعملل ، فترى أن المعلنل من العلة له وجهل ، وعلى ذلك يقال : علل أى ذكر
العلة أو العملل ، وهو ما : فأنل : إن الوارد هو الوصف ،
فأما الفعل فلا نراه في عبارة : إن الوصف إذا ورد كان مؤذناً
بقيام الفعل . ويقول ابن جني : على - بالشام - : إذا صححت
الصفة فالفعل في الكف ، من تحقيق كميور علوم

ومما يؤنس لما نحن فيه في معنى ذكر العلة ؛ ويقول
الفارابي - على ما في المصباح - : بحجته . وقال (١) أبو قيس
ابن الأسلم :

وتكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهم فتعذر
وليس بها أن تستهين بها . ولكنها منهم تحيا وتخفر
فقوله : تعتل عن إتيانهم : بذكر وجه تخلفها عن زيارتهم .
فظهر أن التعليل في معنى ذكر صحيح . والله أعلم .

(١) الخصائص ص ١٢٧

(٢) انظر لأفان ص ١٦٦ ج ٥٠

الْبَيْكَانُ لِلْمُعْجِزَةِ

لحضرة صاحب السباحة ، السيد ،

خليقة حميدة قديمة في علماء الدين ورجالاته ، لا المحدثه فيهم ولا المنزعة ؛
تلك أهم كلها تلقوا أنارة من وحي السماء وحوار النبي صلوات الله عليه ،
تلقوها باليمين والعقد المتين ، واستمسكوا منهما بالحقيقة الصلبة ، لا بالتجوز
ولا التسميح ، حراسة للدين وبغيا لليقين ، وقد نزلت بالاستعارة والكناية ،
آية ، وصاح لسخ وحي المجاز ، أوجاز .

نضّر الله أشياخنا وأسلافنا الأصوليين ، فقد كانوا ألين أخذاً ، وأرفق
تفهماً ، قالوا — على التمثيل — : إن الأمر الشرعي للوجوب ، ثم تلقّوا
ناحية ، فأصّابوا أموراً في طلبها وادة وترفتق ، فقالوا لإلحين تقول الشواهد
والدلائل : لا وجوب . أما خلاوة الشمال كلها ، وترف النفوس والأفئدة
بجملته ، فذاك أن الأصوليين وقد استمعوا إلى آية التفسيح في المجالس ، وهي
قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ، فافسحوا
يفسح الله لكم ، يقولون : إن الأمر للوجوب الشرعي ، أجل ، ولكنه في مثل
هذه الآية للأدب الاجتماعي ، والرقعة النفسية .

تجلت علينا السيرة النبوية بحديثين أو خبرين من النبي صلوات الله عليه ،
أحدهما في هجرته ، والثاني في غزاته ، أخذ
وجوهر الحقيقة ، دون طلاوة الب
إن بنا بعد هذا أن نعرض
لننظر أي الرأيين أمثل ؟ الحق
المعجزة أم البيان ؟ : أما الخبر الأول
مسلم ، قال : « إن النبي صلوات الله

الحديثين في حليته وحليته ،
نابة ؟ ، وأيهما أنبل وأرق ؟ :
آخرجه مسلم في صحيحه ، وغير
بط المدينة في هجرته ، أناه عتيان

ابن مالك ، وعباس بن عباد ، في رجال من بني سالم بن عوف ، وأخذ بزمام ناقته ، فقال : يا رسول الله ، أقم عندنا في العدد والسعدة ، فقال : دخلوا عنها فإنها مأمورة^(١) ، وما زالت الناقة سائرة ، حتى أتت دار بني مالك بن النجار ، حتى بركت على باب مسجده ، والنبي لم ينزل عنها ، فقامت ثانية ، وسارت غير بعيد ، ورسول الله واضح لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفت إلى خلفها وبركت^(٢) .

هذا حديث الهجرة ، يرى العلماء فيه مسحة من المعجزة ، في مقالة النبي صلوات الله عليه ، دعوها فإنها مأمورة ، وفي برؤكها حيث نزل على بني النجار ، يرون أنها أبت البرؤك من ذات نفسها ، ثم من ذات نفسها بركت بعد ذلك ، حيث يريد الله والنبي صلوات الله عليه . ويقول البيان العربي وسحر المجاز : كلاً ، ليس في المقال شيء من هذا كله ، وأن النبوة قائمة^(٣) بغير هذه من المعجزات ، وبينه الآيات .

إن البيان العربي ليس هو الشيء باسم متصل به ملابس له ، وما هو بسبب منه ، وعلاقات المجاز لا تعد ، فقد عني النبي نفسه حين قال : دعوها فإنها مأمورة ؛ ذلك أنه هو المأمور لا هي ، إما بوحى من الله ، وإما بوحى من الصالح ، ورياضة المصالح ؛ يقول الشاعر في مثل هذا ، وأعجب أن يكون في ذكر الناقة :

جاءت إليك قلقاً وضيئها مخالفاً دين النصارى دينها
وإنما جاء بها صاحبها ، وإنما المخالف لدين النصارى إنما هو دينه هو ، لا دينها هي . وقال شاعر آخر ، وأكبر العجب أنه في الناقة كذلك :

سمعت الناس يتجمعون غيثاً فقلت لصيدح انتجى بلالا
وإنما انتجع هو بلالا لاناقتة . ويقول شاعر آخر في تسمية الشيء بما يدانيه ، أو يلاقيه ويلاسه :

فشككت بالرح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
قيل : ثيابه جسمه ، أجل هي كما قيل . هذا هو الحديث الأول ؛ أما الحديث الثاني فذاك حديث القليب الذي ألقيت فيه أشلاء الصناديد من قریش بعد القتل في بدر .

(١) ليست هذه الجملة في أصل الحديث .

حديث القليب :

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن رسول الله صلوات الله عليه كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول : هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله ، فالذى بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التى حد رسول الله صلوات الله عليه حتى انتهى إليهم حين ألقوا فى القليب ، فنادى : يا عتبة بن ربيعة ، يا شبة بن ربيعة ، وبأمية بن خلف ، وبأبا جهم بن هشام ، يا أهل القليب : هل وجدت ما وعدكم الله ورسوله حقاً ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقاً ، بئس العشيرة كنتم ، كذبتمنى وصدقتى الناس ! فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا رسول الله كيف يسمعون ؟ وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟ قال النبی : « والذي نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يجيبوا . »

تلك قصة أهل القليب ، قليب بدر ، الذى ألقى فيه صناديد قریش حين قتلوا . أما الدين فقد أرسلته السماء ، فتلقته بارتياحها الأرض ، وقامت به المعجزات حتى راعت ، شهدها الثقلان ، وغمض عندها القمران ! ، أما المعجزة فلا يحمل أن نقول فيها هذا حديث معجزة ، وإنما هى خارق ، إن كثرت عادت قاعدة أو إلغا ، فلم تكن معجزة ولا آية ، وانقلبت الآية ! .

لسنا بسبيل أن نجد حياة الموتى - معاذة الله - ولا أن نستذكر إسماع النبي لمن فى القبور أو القليب ، فإن هذا حق قائم ، وهو لب الدين ، معقد الإيمان : ولستنا نستذكر أن يكون هذا - دون ما ذكرناه - مغزى السيد الرسول صلوات الله عليه فى هذا النداء لأصحاب القليب ، وإنما هو خطاب العظة والحكمة ، لا لاسرى الموت والفناء ، بل للأحياء ! .

إن النبي صلوات الله عليه حين خاطب أهل القليب فى بدر ، فقرعهم بالحجة القائمة من النصر المؤزر ، لم يعمد إلى إثبات معجزة ، ولا قصد إلى آية ، ولكن سبحة تلك فى العظام أن يتطربوا ، وترتاحهم استبانة الحق ، وبجلى الحكمة : فإن هم خاطبوا الموتى ، وإنما يخاطبون فيهم الأحياء للحكمة والعظة وشفاء النفس بقومة الدعوة وتبليغ اليقين . . . إن حديث النافه فى الهجرة النبوية ، وخطاب أهل القليب فى بدر ، إنما هو إذن للبيان لا المعجزة والآية ، إن فى ذلك لآية .

الشرعية لا مستبد وقانون من انك هذا

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبو الوفا المراغي

مدير المكتبة الازهرية

من أين لك هذا ؟ عنوان قانون تصدره الحكومة الآن تعالج به الفساد الذي أشاعه في الأداة الحكومية ذور الضيائر المدخولة ، والذمم الضعيفة ؛ فضعت ثقة الناس بها ، وسامت ظنهم فيها ، وألجأتهم إلى أن يسلكوا في إنجاز شئوهم مسالك الريب التي سنها أولئك المجرمون ، وهي مسالك قدرة ، لا تشرف بها الحكومة ، ولا تشرف بها الأمة . وقد أثبتت مصر ببعض حكام طغى على نفوسهم سلطان المادة ، وغشى أعينهم بريقها ، فأفقدوا الأمانة والشرف ، ومراقبة الله والواجب ؛ فاندفعوا بجمعون الأموال من طرق غير مشروعة متوسلين إلى ذلك بجهاهم الحكومي ونفوذهم الرسمي ، وكانوا بذلك عاملاً من عوامل الفساد الخلق والاجتماعي ، فأغروا من دونهم أن ينهج نهجهم ، ووجد داء الرشوة سبيله إلى الدواوين ، وانعقدت في جو الموظفين سحب السحت والحرام ، فلجأت الحكومة إلى مكافحة هذا الشر بذلك القانون ؛ لتستقيم الأداة الحكومية ، وليطمئن الجمهور إلى مصالحه وشئونه .

وضعت الخلق وفساد الذمم داء قلما سلمت منه أمة وخلا منه عصر ، إلا أن ظروف الحياة قد تضاعف من أثره وتزيد من خطره ؛ فتلجأ الحكومات إلى سن القوانين لمكافحته ، والوقاية منه ، وليس يبعد أن يكون بعض ملوك قدماء المصريين قد ألجأته الظروف إلى سن مثل ذلك القانون . كما قال بعض الكتاب ؛ فقد ذكر أن هناك قانوناً يعرف بقانون «أمازيس» ، وهو يقضى على كل مصري أن يذهب مرة في كل عام إلى شيخ قريته أو بلدته ، ويثبت له أنه يعيش في حدود موارده من طريق شريف ، فإذا عجز عن إثبات ذلك ، كان قصاصه الإعدام .

وقد عرف الإسلام أصول ذلك القانون في كتاب الله وسنة رسوله ، وعرف

تفاصيله في أعمال الرسول وأعمال الخلفاء والتابعين والصالحين من الولاة من بعدهم ، وعنى الإسلام بموضوعه أشد العناية ، فدعا إلى اختيار الحكام ممن عرف بالعدالة والنزاهة ، وسلامة الدين والخلق ، وحذر من اختيارهم لداعى القرابة والمودة ؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولي من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا ، وهو يحد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « من ولي من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا لمودة ، أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله ، وخان المؤمنين » ، وحذر الحكام من استغلال نفوذهم ، والإفادة من جاههم الرسمي في مصالحهم الخاصة ، وبالغ في تحذيرهم من ذلك مبالغة صرقت كثيرأ من الصالحين عن الولاية والحكم ؛ بل لقد كان بعضهم يؤثر الضرب والسجن على الحكم ؛ كما فعل أبو حنيفة ومحمد رضى الله عنهما . وفى القرآن الكريم من أصول ذلك القانون قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به . إن الله كان سميعا بصيرا » ، فالعمل الذى وكل إلى الموظف أيا كان نوعه وجعل له فى نظيره مرتب يتقاضاه عنه ، أمانة يأمره الله بأدائها على وجه كامل ولا يحل له أن يأخذ من الأفراد شيئا وراء مرتبه ؛ لا على سبيل الهدية أو الاكرام ، أو نحو ذلك من العناوين التى لا تغير من حقيقة موضوعه شيئا ؛ فهو سمح ورشوة ، وحرام مهما تزين بعنوان . وقد حكم النبي صلى الله عليه وسلم بمصادرة الأموال التى جمعت من طريق استغلال النفوذ الحكومى والجاه الرسمى ، وضمها إلى مال الدولة ، كما يقضى بذلك بعض مواد القانون المراد وضعه .

فعن أبى حميد الساعدى ، رضى الله عنه ، قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن اللأثبية على صدقات بنى سليم ، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : هذا الذى لكم ، وهذه هدية أهديت إلى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلا جلست فى بيت أهلك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا . ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس ، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد فأنى أستعمل رجلا منكم على أمور مما ولانى الله ، فبأنى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه هدية أهديت إلى ، فهلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتية هديته إن كان صادقا . فوالله لا يأخذ أحدكم منها

شيئاً بغير حقه إلا جاء الله بحمّله يوم القيامة ! فلا عرفن أحداً منكم اتي الله يحمل بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار ! ثم رفع يديه إلى السماء حتى رقى بياض إبطينه، وهو يقول : «ألا هل بلغت !» قال العيني شارح البخاري في شرحه لهذا الحديث : وفيه أن ما أهدى إلى العمال وخدمة السلطان بسبب السلطة، أنه لبيت المال . وقيل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أفقرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتم فقراء لا شيء لهم، وكان في مرض الموت . فقال : أدخلوهم على، فأدخلوهم وهم بضعة عشر ذكراً ليس فيهم بالغ، فلما رأهم ذرفت عيناه، ثم قال : والله يابني، ما منعتكم حقاً هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين : إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله، فقوموا عني !

وأوجب الإسلام فصل الموظف الذي يدنس شرف الوظيفة بالرشوة، فنص الفقهاء على استحقاقه العزل بها، وحرروا الاستقراض والإعارة ممن لهم شئون ستعرض عليه للنظر فيها . مبالغة في ضمان سير العدالة فيها .

والأحاديث ونصوص الفقهاء وأعمال قضاة الإسلام حول موضوع هذا القانون كثيرة، سواء منها ما يتعلق بناحية التشريع، أو ناحية التطبيق، وهي تبين بحق، حرص الإسلام على سلامة الاداة الحكومية، تحقيقاً للعدالة والثقة في نفوس أرباب المصالح : وتبين بقظة ولاية الأمور في الإسلام، وتقديرهم لخطورة استغلال النفوذ، وسوء أثره في أخلاق المجتمع : فليس هذا القانون يبعيد عن روح الإسلام وشريعته، وأعمال قضاته، وإن خاله بعض الناس كذلك، والبعيد عنه إنما هي الصياغة والأسلوب فحسب، بل ربما كانت نظرة الإسلام إلى هؤلاء الخائنين أشد صرامة من نظرة القانون الحديث .

هذا، ولنا على عنوان القانون ملاحظة لفظية، هي ثقل هذا العنوان اللفظي على السمع والذوق، وربما يشركنى فيها كثير من الناس : وأكبر الظن أن واضع القانون حرصوا على ترجمته من بعض اللغات الأجنبية، ترجمة لفظية، وكان يمكن بشيء من التنبه اختيار عنوان يؤدي هذا المعنى، وليس فيه ذلك الثقل فيسمى مثلاً : قانون الثروة المجهولة، أو الثروة غير المشروعة، أو ما يشابه هذه العناوين، خفة على السمع والذوق ؟

رَعِيدُ الْمَسْتَبِ

المتوفى سنة ١٩٤٤ هـ .

عصره . إلمامة بمنزله وتقدير الناس له . أهم المؤثرات
في شخصيته . عهد التعلم . عهد التعليم . صور من ناحيته العلمية .
لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود النواوي
وكيل معهد أسيوط

عهد السلف الأولين الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل
المبين في قوله : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »^(١) -
عهد كان له فضل التوفيق من الله سبحانه إلى سداد القول ، وسداد العمل ،
وإلى عمران الحياة بما هو سعادة للحياة وبر بأنفسهم وبالناس أجمعين .

كان الناس إذ ذاك ، وليس بهم حرص على عرض هذا الأدنى ، ولا بهم
طمع في نيل المناصب ، أو الإبقاء عليها : وإنما تتمتع أعناق الرجال المطامع .
وكان علماءهم بمنزلة من العزة والمهابة ، تحسدهم عليها الملوك الصيد ، وإذا حاول
كبير أن ينال منها أذله الله ، وردّه خاسماً وهو حسير .

فيا ليت شعري أين هؤلاء وما استنوه لنا من عز أقعس وطهر لا يتدنس
أين هؤلاء ؟ وأيةً سلكوا ؟ لقد طارت بهم عنقاء مغرب ، وعز مطلبهم في كل
شرق ومغرب . فما بقيت إلا ذكرى قد توقظ الهاوين منا في دركات الغفلة
والتمادي في الفضول ، كما يوقظ نائم حسير منهوك قد بعد عهده بالنوم : فلا يوقظ
إلا ليعاود النوم ، ولكن الإلحاح في الإبساس^(٢) ، ربما جاء بالدارة وأنقذ
من شر كبير .

(١) صحيح متفق عليه .

(٢) أبس الناقة دعاها للحلب متلطفاً . والدارة بالكسر : اللبن وأنصابه .

كان سعيد بن المسيب رضى الله عنه من أهل القرن الأول من أولئك الخيار الذين استمسكوا بحبل الله المتين ، وجمدوا على تقاليد الدين ، وأخذوا أنفسهم بما سمعوا من الرسول ومن أصحاب الرسول فاتبعوا أحسنه .

وهو من التابعين الذين يقول فيهم الله سبحانه في كتابه ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات ، الآية . بل هو سيد التابعين ؛ كما تواترت النقول عن السلف ، وكما سترى في الشهادة له ^(١) ، وتقدير المعاصرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم .

كان الخبر الإسلامى العظيم عبد الله بن عمر بن الخطاب . يعجب به كثيراً ، ويحبل عليه في الفتاوى ، ويقول : سلوا هذا فإنه عالم ، فإذا نقل إليه حكمه يقول : ألم أخبركم ؟ بل كان يرجع إليه بنفسه يسأله عن أقضية أبيه عمر ، فلو لم تكن إلا هذه لابن المسيب ، لكفت في فضله .

شاء الله سبحانه أن يكون ابن المسيب في هذه المكانة ؛ فأنبته بالمدينة نبأنا حسناً من أب وجد صحابييين ؛ فقد كان أبوه المسيب صحابياً ، وكان جده حزن صحابياً ، يقولون إنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أنت سهل ، فقال : بل أنا حزن ثلاث مرات . قال سعيد : فما زلنا نعرف تلك الحزونة فينا . ونشأ سعيد منذ عهد العدالة الشاملة والخلق الفاضل العظيم ، عهد عمر بن الخطاب ؛ فقد ولد لسنتين من خلافته على المشهور في الرواية ، وكان عهداً يتفاضل الناس فيه بالتقوى ، ويزنون بما عندهم من علم نافع ؛ وعمل صالح ، فأحب العلم ووهب له وقته ووكده ، وهو حافظ كانوا يتحدثون أنه لا يسمع شيئاً إلا وعاه ، واتصل بالصحابة واختلف إليهم ، يأخذ من معارفهم ، وأدبهم وبجاركهم في تهذيبهم ونبلمهم ، وروى عنهم ما كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم .

فأسند - كما يقول ابن الجوزى - عن عمر وعثمان وعلى وسعد بن أبي وقاص وأبي بن كعب ، وعمار بن ياسر ، ومعاذ بن جبل ، وابن عمر ، وأبي الدرداء ،

(١) يريدون أنهم سيدهم في المعارف والفقہ الإسلامى ، وإلا فقد ورد في الحديث الصحيح ، خير التابعين أو يس ، أخرجه مسلم .

وعقبة بن عامر وصهيب وجابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وسلمان
وأنس بن مالك ، وابن عباس ، وعمر بن أبي سلمة ، وعائشة ، وأم سلمة .

وقد اتصل بأبي هريرة وزوجه ابنته ، ولزمه ، فكان أعلم الناس بحديثه ، وأخذ
تعبير الرويا عن أسماء بنت أبي بكر : فكان من آيات الله وفي مثل منزلة
ابن سيرين ؛ إلا أن شهرته بالفقه راحت إتقانه في التعبير . كل هذه البيئات
الصالحة والانصالات الثمرة ، مع ذلك الاستعداد الخصيب في ابن المسيب ،
سمت به وارتفعت بمكانته ، ووصلت به إلى تلك المزايا ، وخلعت عليه تلك
الألقاب الفخمة ، سيد التابعين ، وأنبأ التابعين ، وإمام الفقهاء ، وما إلى ذلك
عما ينمته به العلماء . قال أحمد بن حنبل يوما : سعيد أفضل التابعين ، فقيل له : فسعيد
عن عمر حجة ، قال : ، فإذا لم يقبل سعيد عن عمر فن يقبل ، وإنما سأل السائل أحمد
هذا السؤال : لأن سعيداً كان صغير السن في عهد عمر فاستبعد أن يسمع من عمر ،
ولكن الثقة بسعيد جعلته في منزلة القبول ، حتى اعتبر العلماء مراسيله من الصحاح .
هذا وإنك تستطيع أن تقول : إن أكبر هذه العوامل أثراً في تكوين سعيد
بعد استعداده الكريم — صحته أبا هريرة ولزومه إياه ؛ كما كان أبو هريرة يلزم
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر الصحابة رواية ، أو من أكثرهم ،
وقد كان من أثره فيه أنه اقتدى به في تزويج ابنته أحد تلامذته الفقراء وإيثاره
بها على الوليد بن عبد الملك الأمير .

على أنه استطاع بالمحاولة والتنقيب أن يجمع فقه الصحابة وأقضيتهم ، يسأل
عنها ويرويهما حتى صار أعلم الناس بها ، وحتى قال عن نفسه : ما بقي أحد أعلم بكل
قضاء قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان مني . ولعل
ذلك لأنه جمع متفرقات ما عند أجلاء الصحابة في عهده ؛ فكان مرجعاً حتى
للصحابة أنفسهم يأخذون عنه ، ويثقون بنقله عن إخوانهم رضى الله عنهم .

• • •

ولعلك إذا سمعت كلمة الفقه ، فهمت فيها ذلك المعنى الطارىء الذى ينصرف
إلى معرفة الأحكام الشرعية على وجه يصح به نظام الحياة وتسقط به
المطالبات ، وإلى دراسة الانكحة ، وصور الطلاق والإبلاء واللعان ، والتغفل

في التفريع على قواعد الرهن والسلم والصرف ، وهذا غير صحيح ؛ فإن الفقه عند السلف كان أسمى من هذا معنى وأنبى مقصدا ؛ لقد كان راجعا الى فهم الدين فهما يهذب النفس ، ويوجهها الى البر والخير ، ويدل على عيوبها ومداخل الشيطان إليها وطرق محاربتها ومجاهدة النفس لتنجو من غوائله . قال الإمام الغزالي في الإحياء ^(١) ، وهو يحدث عما دخل الالفاظ من التغيير :

« إنهم تصرفوا في لفظ الفقه بالتخصيص ، فقد قصر على معرفة الفروع في الفتاوى والوقوف على دقائق علمها ، ولقد كان اسم الفقه في العهد الأول يطلق على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحجارة الدنيا ، وشدة التطلع الى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، ويدلك عليه قوله عز وجل : « ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » . وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة ؛ بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الخشية منه . . . وأفاض الغزالي في هذا المعنى .

هذا هو الفقه الذي أجاده سعيد ، والذي كان سيد عصره فيه . وهذا هو الفقه الذي كان له أكبر الأثر في قنوت ابن المسيب ، وإعراضه عن الدنيا وإقباله على الآخرة ، والذي جعله يلزم المسجد النبوى ، ويواصل الخطى إليه ولا يتخلف فيه عن جماعة ، ولا ينظر في الصلاة إلى قفا أحد ؛ لأنه يصلى في الصف الأول أربعين سنة . وهو الذي جعله يتابع الصوم ، وجعله لا يقبل من أحد شيئا ، وجعله لا يقارن على كظة ظالم ^(٢) ولا سغب مظلوم ، وجعله لا يقبل أن يسام خطة ليست في مرضاة الله ولا طائفة ، وهو الذي جعل سعيد بن المسيب ينظر إلى الخليفة والامير نظرتة إلى المردول الحقير ، لا فضل لأحد عنده إلا بطاعة الله ، ولا يسمع قول أحد لا يدعو إلى سنة رسول الله . فهو لا يبائع الوليد وهشام ابني الخليفة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن بيعتين ، وإن عرض على السيف وإن جرد وطيف به . وهو لا يزوج ابنته من الامير ولى العهد لأنه لغير وجه الله .

(١) ص ٥٤ ج ١ طبع لجنة نشر الثقافة .

(٢) الكظة بالكسر : البطنة .

ولا يلتبس به ما عند الله . لكنه يزوجها لأبي وداعة الطالب الفقير ؛ يزوجها لمن يرضى خلقه ودينه ، ويعرضها عليه بنفسه ويسلمها إليه بنفسه . بعد أن يصلى بها ركعتين ، ثم يبعث إليه بنفقته وما يحتاج إليه ، ولماذا يصاهر الخليفة والقرآن يقول : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » لماذا يصاهر الخليفة ، وقد أعرض عن الدنيا وطلب ما عند الله ، والخليفة يقربه من الدنيا ويباعده عما عند الله . وسأفصل لك هذه الصور بما يضع أمام عينك المثل الصالح للعالم الصالح وللرجل الدين الصحيح .

وبعد ، فإن المتبوع لتاريخ هذا الإمام يستطيع أن يقسم حياته شطرين : شطر التعلم والاستفادة ، وشرط التعليم والإفادة .

أما الشطر الأول فتستطيع أن تحيط به إحاطة عابرة ، إذا علمت أنه منذ نشأته في هذا الوسط الكريم ، ماونى في طلب العلم يأخذه من أصوله ويصعد إليه في قمه بمن ذكرت لك من الصحابة ، وهو الشاب المثوق الطموح ؛ يعينه على ذلك صفاء نفس ، وطهر من كل دنس ، وقلب حافظ ، وتفرغ كان يحفره إلى الرحلة في طلب الحديث الواحد الأيام والشهور . على أنه كان قليل الرحلة في طلب العلم ؛ لأنه في ذلك العهد موفور بالمدينة مقر الخلافة وموئل العلمية من أصحاب محمد ؛ فهي تموج بالعلماء الربانيين الذى نصبوا أنفسهم لتبليغ دين محمد صلى الله عليه وسلم ، يبينون الكتاب للناس ولا يكتُمونه ، وينقلون الحديث والفقه ولا يدخرونه ، فقيم رحلته وهو بين بحار العلم المتلاطمة ، وبين أنوار الإسلام المتلاثلة من المهاجرين والانصار . رحم الله الجميع وجعلنا لنا فيهم الأسوة الكريمة ، فزال ابن المسيب في ذلك الجانب ، حتى صار كنز ع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى هلى سوقه ، وتضاعف إحسان الله سبحانه إليه ، فكان إمام التابعين ، تضرب إليه آباط الإبل ، وهو في ذلك الحين المثل الأعلى للنؤمن الصالح والمسلم المحافظ .

ثم يبتدى الطور الثانى من حياته ، وهو طور الإفتاء ونصب نفسه للتعليم إيماناً واحتمساباً ، يمكف أكثر وقته على مسجد الرسول بين صلاة وتعليم ، ولا يعرف بالتحديد ذلك الوقت ولا نص عليه ، ولكتنا نرجح أن ذلك كان فى المدة

بين خلافة معاوية وابنه، ومهما يكن فقد ألقى عصا التسيار لا يعرف الطريق إلا ما بين مسجده ومثواه، مع أنه يتجر في الزيت؛ فلا تلبيه التجارة عن ذكر الله وإقام الصلاة، ويجمع من المال ما يصون به عرضه، ويكرم به نفسه عن بني مروان، ويحسن به إلى الفقراء قصداً لا إلحافاً، وإجمالاً لا تغلغلاً.

ويمكن تحديد أمره في ذلك الطور بأنه عكف على التعليم والنسك لله، وإيثار عبادته على كل ما سواه، لا يثنيه عن ذلك ثان. على أنه امتحن في دينه بما يترخص في مثله كثير من رجال الدين، فما لانت له قناة، ولا عدل عما يعرف أنه الحق ولو كان السيف على رقبة؛ إذا قال: لا لم يستطع أحد أن يقول نعم، وإذا قال نعم فما أمناها وما ألد موقعها، قال: لا لعبد الملك بن مروان أكثر من مرة فما استطاع أن يصرفه عن مبدئه. وقال: نعم لأبي وداعة فدوت في أرجاء المدينة وهزت أركانها. وعلى الجلة لقد ظهرت تلك التواحي الثلاث في الإمام ظهوراً جلياً لا يقبل لبساً ولا غموضاً: العلم الغزير الذي جعله مرجعاً للوك والرعية، والنسك لله مع الزهد في الدنيا ومظاهرها الخلابية، والصبر على الحق والجهاد في سبيله حتى يظهره الله أو يهلك دونه. وإليك صوراً من كل ناحية منها:

فأما علمه وسعة أفقه في الدين، فيتجلى فيما أشرت لك إليه من ثقة الناس به، وتوافتهم على الاعتراف من بحره، سواء في ذلك التابعون وغيرهم من أهل العلم حتى الصحابة أنفسهم.

روى ابن سعد في طبقاته بسنده أن سعيداً كان يقول: ما بقي أحد أعلم بأقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان مني. وأن سعيداً كان يفتي والصحابة مشهود، وأن مكحولاً كان يقول: ما حدثكم به فعن سعيد ابن المسيب والشعبي، وأن ميمون بن مهران قال: دخلت المدينة فسألت من أقمها؟ فدفعت إلى ابن المسيب، وأن عمر بن عبد العزيز كان لا يفتي بقضاء حتى يسأل ابن المسيب. وقال يوماً: ما من أحد إلا يأتيني بعلمه إلا سعيد بن المسيب فإني أوتى بعلمه. وأرسل إليه يوماً رسوله يسأله عن مسألة، فذهب الرسول إليه واستدعاه إلى عمر، فقال له عمر: إن الرسول لم يفهم، إنما أرسلته إليك ليسألك عن كذا!.

(يتبع)

الدُّوقُ فِي الْقُرْآنِ

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

ورد الذوق في القرآن بمعنى الحس والإدراك ، ومن ذلك ما يقول الله عز وجل لفرعون يوم القيامة توبيناً له على تعاليه وجبروته ، وكبريائه وعتوه ، وألوهيته وسلطانه ، وغطرسته وجهله : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » ، وقوله أيضاً : « فذاقوا وبال أمرهم » ...

وقد اتفق العلماء على أن يقولوا : الذوق الأدبي ، أو يقولوا الذوق بجرده من الوصف ، وفي كلتا الحالتين يقصدون من الذوق معنى أدق من الأدب ، وأوسع من التخلق ، وأسمى من اللباقة . وإذا صح أن يكون لكل شيء فلسفة يقصد بها إلى لبابه الخالص ، وراووقه المصنفي ، ومحضه الصراح ، وصميمه الجيد ، وخياره المتقى ، فإنهم يعمدون حين يطلقون تلك الكلمة إلى أروع معاني الأدب ، وأرقى مكارم الأخلاق ...

والذوق كالجمال لا تحده ضوابط ، ولا ترسمه قواعد ، ولا يكشف عن حقيقته تعريف ، يدرك الناس آثاره ولا يستطيعون تكييفه ، يشيرون إلى هذا المعنى إذ يقولون : والذوق شيء ليس في السكتب ، لأنه لو كان كذلك لأمكن تحصيله وتأتى للدعم منه أن يتحل به ... إلا أنه وإن خلا من القواعد التي يلم بها الطالب ، وعزى عن المسائل التي يكبد في فهمها المستفيد ، ففي صورته من العبر وأمثلة من الشواهد ، وألوانه من الآيات ، وجزئياته من الدلائل ، ما يجعلنا نجزم بأنه : هدى الله يهدي به من يشاء من عباده .

وللعرب قبل نزول القرآن إليهم ، ونشر رأيه فيهم ، وسريانه إلى أفئدتهم وتغلغله في عقيدتهم ، أساليب من الخطاب ، وأنماط من الحديث كلها يدل على جفوة الطباع ، وخشونة التعبير .

ولعلنا لا ننسى أول موقف وقفه محمد صلى الله عليه وسلم يعلن فيهم دعوة السماء ، ويلفهم رسالة الله ، وبأخذ ييدهم إلى حيث يتجهون إلى صراط العزيز الحميد ، يوم نادى على الصفا والمروة : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، وكان من أحد قرابته أنه قال له تبألك لهذا جمعنا ؟ » وهو رد — كما ترى — لا يحذر به أن يصدر من إنسان عادي فضلا عن رجل تضمه وإياه صلة ، ويربطه به نسب ، وتقضى أبسط قواعد الأدب عليه أن يحمله ويتلطف معه ، إن لم يقف إلى جانبه يناصره ويؤازره ، ويسانده ويعاضده ، ويحميه عن يرميه .

ومن العجب الغريب أنهم مع شدة لدهم ، وقوة حجبتهم ، ووفرة منطقهم وتماس فصاحتهم ، يتخبطون في الجدل ، ويتنكبون السبيل في المناظرة ويقولون : « أساطير الأولين اكتتبها ، » ويقول الذين كفروا لست مرسلًا ، ويرمونه بالجنون أو يتهمونهم بالسحر ، ثم لا يكتفون بذلك حتى يضيفوا إليه ما يدل على الحماقة ويسجل عليهم الطيش . اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، وهو ترجمة لإحساسهم المتبلد ، وشعورهم الجامد ، ووجدانهم المظلم وعظمتهم الضيق ، وطريقهم الملتوى وتفكيرهم المضطرب . ولو أنك قارنته بما يرد عليهم ، ويتقدم به القرآن بين يديهم ، ولما أو لياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، لوجدت مدى ما يسمو إليه أدب الخطاب ، ويعرج فيه أسلوب الجدل : لأنه لو جابههم بالخطأ ، ورماهم بالنعسف ، ووصفهم بالغواية ، لكان زيادة على الهجاء الذى يهجوم به ، واللمز الذى يوقعهم فيه ، يهيج حفاظهم ، ويشير كامن غضبهم ، ويوقظ الجاهلية الأولى فى نفوسهم . . إلى جانب أن الحديث على صورة الشك — هكذا — ربما يمتد على التروى والنظر ، والبحث والاستنباط ، وهو الهدف الذى تهدف إليه الآية ، ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وفى قصة إبراهيم عليه السلام ما يدل على أن الرسالة كلها لم تكن ترمى بالقول على عواهنه ، أو ترسل الدعوة على سجيته دون أن يكون هنالك فكر شديد ، ونظر رشيد ، ومجال من التدبر بعيد .

ونحن لا نتبين ، الذوق ، فى القرآن تمام البيان إلا حين تقابل بعض عباراته بعباراتهم ، أو جملة بحملهم ، ولا سيما إذا اشتدت لاجاة الخصام ، وحمى وطيس المناظرة ، فرأيت ساعته هادى الأسلوب ، رزين التفكير ، سرى المنطق ،

د. س. س.

جم الأدب ، لا تحامل فيه ، ولا تحيز معه ، يقول الحق وهو يهدي السبيل ،
مقترنا ذلك كله بالذوق واللفظ .

وما أظن التصور والإدراك ، والشعور والإحساس ، والخيال والوجدان ،
تحيط بدقة رسم وحكمة تعبير ، لما يكون بين الرجل والمرأة من مداخلة وعشرة ،
ومخالطة وأنس ، ومودة وحب ، وتعاون وانتفاع ، أكثر من الآية ، وقد أفضى
بعضكم إلى بعض ، فهي تطوى معاني كان التصريح بها يتنافى مع اللياقة ، وينبو
عن الأدب ، ولا يتفق والكرامة ، وفي الوقت نفسه تستدر عطف كل من
الزوجين على الآخر ، ليغضى له ، ويتسامح معه ، ويتطابق الذوق في ، أفضى
بعضكم إلى بعض ، بالذوق في ، هن لباس لكم وأنتم لباس هن ، فإنهما مع اختلاف
السياق ، وتباين الغرض ، يتلاقيان في جمال الكناية ، ويشتركان في حسن
الإشارة ، ودقة الأداء ولطف المرمى ، فلا يسيء كلاهما أخاه ، ولا يفشى سره ،
ولا يخلق عليه الذنوب ...

أما ، عفا الله عنك لم أذنت لهم ، فميار جديد من الذوق ، وطريقة مستحدثة
من الأدب ، ولون انفرد به الحكيم الخبير ، ولا يذعن لذلك الحكم ، أو يؤمن
معنا بتلك الدعوى إلا من يستحضر في ذهنه غزوة نبوك التي سماها الكتاب
العزير ، ساعة العسرة ، لما فيها من الحر والجوع ، والقيظ والجذب ، والسكران
والفتور ، والتواني والغفلة ، والنفاق والكذب ، والدهاء والمكر ، والخداع
والتمويه . وأي لباقة خطاب ، وكياسة تصوير ، وبراعة إبداع ، وخلاصة منطق ،
تلك التي تلين ذلك اللين في موطن الشدة ، وترق إلى ذلك الحد فلا تستولى عليها
حدة ؟ اللهم إنه حديث السماء ، إلى صاحب الحوض واللواء ...

وما أردت بهذه الكلمة بحثاً يستقصى ، أو أمثلة تُنحصى ؛ فإن القرآن كله
معين لا ينضب ، وبحر زاخر بالؤلؤ ، وكبز لا يفنى له ثراء ، ولكنني فقط أردت
أن أفتح حديثاً عما نى أن أوفق إلى استطراده ، أو يُسَمَّل الله لغيري سبيل
امتداده ، في وقت نحن أشد ما نكون حاجة إلى كتابنا نستلهمه ونستهديه ،
ونجتلي الخير مما فيه . رزقنا الله السداد ، وكتب لنا الهداية ، وجعلنا من يتذوقون
بالقرآن ، وينتفعون بآياته البينات ، وعظاته البالغات ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

أعلام الأزهري

الشيخ على الليثي

(المتوفى سنة ١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م)

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل الفقي

لمدرس بكلية اللغة العربية



نشأته وحياته :

هو الشيخ على بن حسن بن علي ، ولد في بولاق مصر ، سنة ١٢٣٦ هـ ، وتوفي والده وهو حدث يافع ، فانتقلت به أمه إلى جهة الإمام الليثي ، فكان يطلب العلم بالأزهر ثم يعود إليها للبيت بها ، وظل على ذلك بضعة سنين ، ثم قدم إلى مصر الشيخ السنوسي الكبير ، قاصداً الحج ، فاتصل به وحج معه ، ولما رجع السنوسي ، إلى مصر لم يدعه بل استصعبه إلى جفوب ، وليث بها مدة يطلب العلم ويفيد ، حتى فارق السنوسي ، وعاد إلى مصر ، فاتصل بوالده عباس باشا ، الوالي ، فألحقته بوظيفة متواضعة في القصر ، وازدلف إلى الأمير أحمد باشا رفعت ، بن إبراهيم باشا ، الكبير فأدناه منه ، ومكث من تقلب النظر في خزانة كتبه ، فأفاد منها ساعة أفق وخصب مادة .

ومن الطريف أن سفره إلى المغرب كان سبباً في اتهامه بمعرفة السكك الحرامية والعراقة ، حتى إذا ولي سعيد باشا ، على مصر أمر بنفي هؤلاء الذين يحتالون على الناس إلى السودان ، فكان المترجم من بينهم ، وقد ظل بالسودان حتى عفا الخديو عنه ، فعاد إلى مصر .

وقد طارت شهرة الليث وذاع صيته ، وعرف بحضور البديهة ، وحصن المناداة ، فلما ولي د اسماعيل باشا ، على مصر قربه إليه ، واتخذ منه ومن الشيخ علي أبي النصر المفلوطي ، نديمين له ، يستمتع بشمرهما ، ويستطيب حديثهما .

فلما عزل د اسماعيل ، وخلفه د توفيق ، درج على ما كان عليه سلفه من إثارة الليث ، وإجلاله واصطفائه ، حتى إذا شبت الثورة المرايية كان د الليث ، بين من خاضوا غمارها ، وأججوا جراتها ، ولكن د توفيقا ، شمله بعفوه ، وصفح عن زلته ، ومش له ، إذ تبرأ بقصيدته التي يقول في مطلعها :

كل حال لضده يتحول^١ فالزم الصبر إذ عليه المعول^٢

بل إنه بعد أن تبرأ من الفتنة المرايية ، وأبان عذره في مسامرة المرايين ، زاد قربا من نفس توفيق ، وأحله مسكنا ترمقها الابصار ، وترنو إليها العيون ؛ فقد شيد لنفسه قصرا د بحلولان ، وكان يتردد عليه مرتين في كل شهر ، يركب من حلوان سفينة بخارية تنقله الى ضيعة د الليث ، د شرق إطفيج ، فيؤاكلة ويقيم عنده ، ومن ثم يُعنى الليث بهذه الضيعة ، فغرس بها أطيب الكروم والأشجار ، وأقام بها قصرا أنيقا يكون للامير واتباعه منزلا .

وقد كانت هذه الضيعة مقصدا للآداب ، وكمبة للشعراء والعلماء ، يجردون فيها غذاء للروح والجسد ، من ثمار فاكهته وطيب مفاكهته ، وقد كان مسرقا في كرمه حتى إن ضيفائه ليقيمون عنده أياما وأشهرًا .

ولما نزل بمصر د السلطان برغش ، ملك د زنجبار ، ندبه الخديو اسماعيل لمرافقته ومجالسته ، فارتاح السلطان لحضته وخفة روحه وعذوبة حديثه ، حتى إنه لما عاد الى بلاده كان يمنحه الهدايا الفاخرة كل عام مما تمتاز به هذه البلاد من عنبر وغيره ، فيكون لأصدقاء الليث وخلطائه من هدايا السلطان نصيب .

وإذ قضى د اسماعيل ، تقلص العطف الكريم الذي كان د الليث ، في ظلاله ، وانقبض د عباس ، عنه ، ولم يكن لليث من خصب جنبه بعض ما كان له

من اسماعيل ، فعكف على ضيعته ، يستغل زرعها ، ويدمن الاطلاع في مكتبته الضخمة التي ما زال يضم إليها من الاسفار النادرة ، وأمهات الكتب الادبية ما طبع منها وما استنسخ حتى كانت من أوفى الخزانات وأحفظها علمياً وأدبياً ، ولم يزل كذلك الى أن تآمرت عليه العلل فناء بها أثمرا حتى قضى في العاشر من شعبان سنة ١٣١٣ هـ فانطوت به صفحة من الانس والصفاء وطول المتاع .

منادته :

كان الليث خفيف الروح ، عذب الحديث ، حسن المحاضرة ، سريع البديهة ، موافق الجواب ، معروفاً بطيب السمر ، ورقة المنادمة ، حتى أطلق عليه «سيد الندماء» .

والمنادمة فن دقيق يعتمد على مواهب وفطر خاصة ، وبحسب الحاجة في تناوله الى لباقة وكياسة ، وتفطن الى مواطن النكتة ، وموقعها من النفوس ، وتفرض فيما يطيب من القول ، ويلذ لسامعه ؛ هذا الى سرعة البديهة ، والخذل في معرفة الطبايع ، والبصر بختلاف الاخلاق ، وتمييز كل موقف من صاحبه ، والتمسك من أدب المفاكهة ، والإلمام بما يهش له السامع في شتى أحواله ، وما يرفقه به عن نفسه إذا غشيها الملل ؛ على أن النديم قد نحاك حوله الدسائس لتصرف عن جمال نكته ، وتصعد عن التبسم والبشاشة له ، وقد يرتصد له بعض الخبثاء فيفسد عليه غرضه بالتصريح أو الإيحاء ؛ فإذا لم يكن حاضر البديهة ، موافق الجواب ، لبقاً في الاخذ بالشئ والانصراف عنه ، قادراً على الانتقال من حديث الى حديث ، ومن مقام الى مقام ، فشل في جو السرور والمفاكهة الذي يهيم به ويشرق الانس منه .

وقد كان كل ذلك من مواهب الليث في منادته ، فإنه ليجمع الى طلاقة لسانه ، وفيض خاطره ، وحلاوة حديثه ، وحسن بصره بمواطن الحديث ، وتهديه الى ما يحسن أن يأخذه من القول وما يبدع ، روائع من الادب وأطياب من البيان ، يصرفها في كل مجلس ، ويديرها في كل مناسبة ، ويعرضها إذا استشرفت

لها الاسماع واهتز لها العواطف والوجدانات ، فيملا النفوس أنسا وراحة ،
والقلوب بهجة ولذة .

« ولا نحسب أن في شعراء الجيل الماضي شاعراً يمثل مدرسة الندمان كما كان
يمثلها الشيخ علي الليثي الذي ارتقى في هذه الصناعة ، حتى نادم اسماعيل وتوفيقا ،
وبقي من نوادره ودعاباته ما يذكره المتأدبون والممنونون بأخبار القصور حتى
في أقصى الصعيد ، (١) »

وقد بلغ من شغف إسماعيل به أن أعد له ولصاحبه الشيخ علي أبي النصر
المنفلوطي قاعة خاصة بديوانه يجلس بها كأنه أحد رجال القصر الذين توكل اليهم
أعماله ، وكما قلنا من قبل إن « توفيقاً ، كان ينزل بضيافته حياً لمناذمته ، وإيثاراً
للمناكبة .

ولم يؤثر فيما تقل اليأس عن نوادر الليثي ونكاته أنه فرط في كرامته أو أغضى
على هيئته على ما تحفّفه هذه الصناعات من أقدار الناس ، فقد ظل « عالماً ،
من علماء الأزهر ، لم تجرح هذه الصناعة كبريائه ، ولم تبدل به إلى ما يتبدل إليه
المضحكون والمهاترون .

وقد خلف الليثي من نوادره وأدبه الضاحك الباسم ما فيه أبلغ المتع
واللذات ، وما هو في هذا الأدب الرقيق غرة وجمال ، ولكنه ذهب أشتاتا
لم يعن بجمعه ، أو يخلد بإيثاره . وكان في مثله - لو حواه كتاب - ما استروح به نفوس ،
وتبتهج به صدور ، وتبدد كآبة ، ويذهب ملال .

طرف من نوادره :

كان أحد الكبراء يفرغ بالمدينة تفاحة ليشرب فيها فأنقصت المدينة خلال
ذلك ، فرنا إلى الليثي كأنما يطلب القول منه ، فإذا به يرتجل البيتين :

(١) شعراء مصر ويثانهم للمقاد ص ١٠٢

عزت على الندماء حتى لإنهم اتخذوا لها كأساً من التفاح
ولدى اتخاذ الكأس منه بمديّة لأن الحديد كرامة للراح

وهما آية على صفاء ذهنه ، وحضور بديته ، واستجابة الشعر له .

ودخل يوما ومعه الشيخ ، على أبو النصر المنفلوطي ، على الخديو اسماعيل ، وهو منقبض ، وكان الرجلان طويلي القامة ، دميمي الخلفة ، فاحى السواد ، فلما أبصرهما ، اسماعيل ، أخذ يقلب فيهما الطرف ، وينظر إلى طولهما وعرضهما ، فما إن رآه الليثي كذلك حتى شرع يقلب كفأ على كف ، فقال له اسماعيل : ما بالك تفعل هذا ؟ قال : أفكر في أمر أقوله إذا صفح عنه مولاي مقدما ، قال : قد صفحت فقل ، قال : وأراني أستغرب ما الذي أعجب به مولاي في مدختين مثلي وزميلي هذا ، فضحك الخديو وسرى عنه .

ولما أمر اسماعيل أن يكتب على حجرات موظفي القصر لافتات تشير إلى وظيفة من فيها ، أشار المهردار ، أحد كبار رجال القصر بأن يكتب على حجرة الشعراء التي كان الليثي بها ، لئلا نطمعكم لوجه الله ، وإذا سأل الليثي عن أشار بذلك قيل له إنه المهردار ، فأراد أن ينتقم لنفسه ، فانتهاز فرصة جلوسه مع الخديو وحضور المهردار وقال للخديو : إن حادثة وقعت لي اليوم ، فقال : ما هي ؟ قال صفحتها زجلا ، قال : وما هو ؟ قال :

لي طاحونة في البلد غابت منها وعقلي دار
علقت فيها الطور عصي علقت فيها المهر دار

ومرّ به كبير من رجال القصر خياه تحية الغربيين بخفض رأسه ، فلم يرقه ذلك ، فبز رأسه كمن يقول لا ، فشكا الأول للخديو زراية الليثي به ، فلما سأله الخديو عما صنع معه ، قال : بهز رأسه كأنه يقول تاطحن ، فقلت له : لا !
، يتبع ،

مناثر الشعر العربي بربيع الإسلام

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس في كلية اللغة العربية

كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تسامها منزلة ، ومكانة لا تدانيها مكانة :
فهو ديوان مآثرهم وسجل مفاخرهم ، واللسان الناطق بهم من فضل وما هم عليه من
مجد أثيل وعز شامخ . ما من حرب تقوم بينهم إلا كان الذي هاج نارها وأوقد
سعيها وشب لظاها الشعر ، وما من مسلم ينشر على الناس أعلامه ويشملهم
وارف ظلاله إلا كان الشعر أسامه وباعته والداعى إليه .

ولا تفتح مغاليق الأنفس ، ولا تلين قساوة القلوب ، ولا تنال العطايا والهبات
ولا تجزل المنح إلا بالقول الفاتن والشعر الدافع ، الذي يزدلف به الشاعر إلى
ما يريد من رغبة ، ويحتال به على ما ينبغي من غرض . ولا تعمر مجالس السمر
ومحافل الغلية إلا بما ينشد فيها من طرائف الشعر وروائع القصيد .

يبد أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم ،
كانت قد تحرفت في غالب أمرها عن الوضع الكريم الذي يليق بالإنسانية
المهذبة العاقلة ، والخلق القويم الذي تصلح عليه الحياة ويستقيم به أمر المجتمع .
فكان يصف المرأة أقبح وصف ، ويكشفها أشنع تكشف ويهتك الحرمات ويخرق
الحجب والامتناع ، ويشير العصية ويوقد الحمية ، ويحرض الناس على الاقتتال
والتناحر ، ويبعثهم على التقاطع والتدابير والتنافر .

فكان بهذا السم وبهذه الروح من معاول الهدم وأسباب الدمار التي
منيت بها الحياة العربية ، ثم جاء الإسلام بدعوة الإخاء والمساواة ، دعوة العفة
في القول والفعل والأدب الذي يليق بالمسلم ؛ فحرم على الناس الفواحش ما ظهر

منها وما بطن، وحذرهم من باطل القول وزوره، ومن سيء الظن وخداعه وغروره، ودعا أوليائه وأتباعه إلى أن يتبعوا عن كل رذيلة ويمتنعوا من كل موبقة، وأن يكفوا عن القول والفعل إذا كان في ذلك ما يؤذى نفس مسلم.

أمات الإسلام فيهم روح العصبية، وأخذ في نفوسهم حمية الجاهلية، وحظر عليهم أن يلوا بما يثير النفس أو يذكر بالخصومات أو يحرك كامن الاحقاد ومستور الضغائن.

حرم عليهم شرب الخمر؛ لأنها رجس من عمل الشيطان، وأوجب عليهم حفظ الفروج وغيض البصر وكف الأذى وصيانة الحرمات. من هنا وجد الشعراء الذين دخلوا في الإسلام وأشربوا روحه وامتدوا بهديه، وجدوا أدبا غير الأدب، وروحا غير الروح وأسلوبا في الخطاب غير الأساليب التي اعتادوها، وطرائق غير العرائق التي ألفوها، ونحوا من بلاغة الكلام السطح العفيف تندق أعناقهم، وتقطع نياط قلوبهم دون أن يبلغوا مداه أو يقتربوا من حده.

وجد الشعراء أن أداتهم تعطلت، وأن سيدهم إلى ما كانوا يتناولون من المعاني والصور قد قطعت، وأن ما كان يخوضون فيه من ألوان القول دون خوف أو تحرج، قد حظر عليهم الإسلام أن يلوا منه إلا بما عفا لفظه وشرف معناه. من أجل ذلك تحولوا عن معانيهم التي أجادوها، وأبدعوا فيها إلى المعاني التي يقرها الدين الجديد ويرتضيها؛ بل إن من شعرائهم من امتنع عن قول الشعر في الإسلام، لأن الله أبدل به خيرا منه. فإن لبيد لم يؤثر عنه في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ثم امتنع بعد ذلك عن الشعر إلى أن وفاه أجله، وقد أرسل إليه عمر يسأله ماذا أحدث من الشعر في الإسلام؛ فقال: أن أبدلت بالشعر سورة البقرة وآل عمران.

والواقع أن تحول الشعر من روحه ومشربه في الجاهلية إلى روح جديدة، وحياة جديدة ومعان ربما ضاقت بها شياطين الشعر، وتختلف فيها أخيلة الشعراء. هذا التحول قد عاد على الشعر بشيء من الضيق وانقباض الأفق، وجعل شعراء الإسلام يحفلون عن كل معنى يتسم بسمة جاهلية أو تنفر منه التعاليم الإسلامية

وفرق بين شاعر ينتهب كل معنى يعن له ، ويقتصص كل فكرة تنبياً أمامه في أى موضوع وفي أى ناحية ، وبين شاعر يستولى عليه التحرج من كل ما يخالف دينه ولا يلتزم مع عقيدته .

فهذا الخطيئة لم يرق الإسلام له طبعاً ، ولم يهذب له نفساً ، ولم يغير له من سميت ، ولم يعدل له من سلوك ؛ فبقى شعره على ما كان عليه جاهلي النزعة زاخراً بكل ما يمكن أن يحمله الشعر من معنى خبيث أو هجاء ، مقدع ؛ حتى لقد حبسه عمر ابن الخطاب ولم يطلق سراحه إلا بعد أن هدده بقطع لسانه وأخذ عليه العهد ألا يتناول أعراض المسلمين .

وهذا حسان بن ثابت قد امتزج الإسلام بدمه ولحمه ، فترك ما كان يتعاطاه شعراء الجاهلية ، ولم نر له بعد ذلك شعراً قوياً إلا قوله في مناقبة أعداء الإسلام ومكافحة خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيما عدا ذلك فقد تحول شعره عما كان عليه في الجاهلية من القوة إلى الضعف .

على أن الإسلام لم يهجن من الشعر إلا لما يحمله من المعاني التي لا تتفق وجلاله ، ولا تناسب وقاره وكاله ، ولم يفض من شأن الشعراء إلا لما يبدو منهم من سمات وخلات لا يرضاها الدين ، ولا ترقح إليها الأخلاق الكريمة ، والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، . أما ما عدا ذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينصت للشعر ، ويستمع إلى الشعراء ويقول : « إن من الشعر لحكمة » . وكان يأمر حسناً أن يرد على خصومه ويهجو أعداءه .

ولقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد بني تميم - بعد فتح مكة - ودخلوا المسجد وقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم ، فقام عطار بن حاجب بن زرارة ؛ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن ثابت ، فرد عليه ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا يقسم الربع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا من الشعراء إذا لم يؤنس القزع (١)

ثم ترى الناس تأثينا سرانهم من كل أرض هويًا ثم نصطنع
فلما فرغ الزبرقان بن بدر ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حساناً بالرد
عليه فارتجل حسان قصيدته :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريره تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياءهم نفعا
سجية تلك فيهم غير محذرة إن الخلائق فاعلم شرها البدع
فلما فرغ حسان من قصيدته ، قال الأقرع بن حابس أحد رجال الوفد :
والله إن هذا الرجل (يعنى محمداً) لمؤقن له ^(١) . لخطيبه أخطب من خطيبنا ،
ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولاصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم أسلموا .
فنحن نرى أن الشعر حين أخلص فى وجهته ، وسلم بما كان يدنس من هناك
الاعراض ، وكشف الاستار ، كان من أسلحة الدعوة الجديدة ، والالسنه
المجاهدة المكافئة فى سبيل تثبيت دعائمها واستقرار قوائمها ، ومن هنا نستطيع
أن ندرك رسالة الشعر فى هذه الفترة التى صلحت فيها الأخلاق ، وتطهرت
القلوب ، واستنارت الأفئدة ، وأظلم الناس عهد وادع ، بجمله حسن الأدب ،
وجمال الخلق ، وعفة اللسان ، وسماحة المقال .

كانت رسالة الشعر إذ ذاك رسالة سمحة لا تعرف الفحش ، ولا تحب
الجهل بالسوء ، ولا تألف الخوض فيما حرم الله . فهى رسالة مستمدة من روح
الإسلام وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة ، ودهوته الحققة ، إلى معاملة الناس
أكرم معاملة .

أما من بقى على عهد الجاهلية من شعراء هذا العهد فيما يقول وينشد : فقد
نعى عليه الإسلام سلوكه وحاربه المسلمون أعنف حرب ؛ لأن لسانه ظل سادرا
فى غيه بمعنا فى كفره لم يدخل فيما دخل فيه الناس أفواجا من دين رب العالمين
وشريعة أحكم الحاكمين . ولقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن سبله

(١) أى سهل له فى أمره .

ورمطاً من الأنصار؛ فقتلوا كعب بن الأشرف من شعراء المدينة اليهود، لأنه شذب بنساء المسلمين. وهذا ضابيء بن الحارث البرجي هجا بعض بني جدول بن نهشل فأخش في هجائهم، حتى رمى أمهم بالكلب فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فحبسه. وقال له: لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حي لأحسبته نزل فيك قرآن وما رأيت أحداً رمى قوماً بكلب قبلك. ولقد حبس عمر النجاشي الشاعر الذي هجا بني العجلان رمط ابن مقبل بقوله.

وما سمى العجلان إلا بقولهم خذ العقب وأحلب أيها العبد واعجل وكذلك حبس الخطيئة حين أخش في هجو الزبرقان بن بدر، وهدده بقطع لسانه لولا أنه فزع إليه، وتلطف لديه واستشفع بأفراخ زغب الحواصل ليس لديهم ماء ولا شجر.

وهكذا أصلح الإسلام العقائد والنفوس وهذب الالسنه، ووجه رسالة الشعر إلى أسنى الأهداف وأنبى الغايات.



مركز تحقيق طلب الرزق

قال عمر بن الخطاب للقراء وهم أهل العلم: يا معشر القراء اتمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس.

وقال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً.

وذكر رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد في العبادة والقوة على العمل، وقالوا: صحبناه في سفر فآرأينا بعدك يا رسول الله أعبد منه، كان لا يفتل من صلاة ولا يفطر من صيام.

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: فمن كان يمونه ويقوم به؟ قالوا: كلنا. قال النبي عليه السلام: كلكم أعبد منه.

طاليس

زهاء حول ٥٨٥ ق.م

لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

١ - المصادر

طاليس أول فلاسفة اليونان ، ورأس الحكماء السبعة . طارت شهرته حتى حكي العرب أنه « حكيم مشهور في زمانه ، وأقاويله مذكورة وآراؤه في الفلسفة بين أهلها مشهورة ، كما يقول القفطى .

ويحتاج التحقيق العلمى لحياة طاليس وآرائه أن يبدأ بتحقيق المصادر التى كتبت عنه وبيان مرتبة محتها ونقيتها .

أقدم مصدر هو هيرودوت ، المؤرخ اليونانى الملقب بأبى التاريخ (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م) وهو أقرب مصدر إلى طاليس ، ولكنه عاش بعده بقرن من الزمان تقريبا ، وبذلك لا نجد مؤرخا معاصرا له يحكى لنا مذهبه . ويسجل هيرودوت فى تاريخه أن طاليس تنبأ بكسوف الشمس الذى كان حداثا للحرب بين الليديين والميديين . ثم نصيحته لمدن أيونيا بتكوين حلف برئاسة تيوس . ثم النظرية القائلة بأن فيضان النيل يرجع إلى مطول الأمطار التى تنقلها الرياح الشرقية . ثم الرواية القائلة بأنه نصح كروسس أن ينقل جيشه عبر نهر هاليس بعد تغيير المجرى .

المصدر الثانى أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧) وهو يروى قصة وقوعه فى بئر حين كان يتأمل النجوم ، وقوله : إن كل شئ مملوء بالآلهة .

(٥) وترسم بالتاء أو التاء فيقال تاليس أو تاليس .

المصدر الثالث، وهو الأهم من الناحية الفلسفية أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢) يقول عنه في كتابه «ما بعد الطبيعة»: «لأنه مؤسس الفلسفة، ويسجل مذهبه في أن المادة الأولى هي الماء. وفي كتابه «السماء»، إن الأرض تطفو فوق الماء؛ وفي كتابه «النفس»، إن كل شيء مملوء بالآلهة، وإن المغناطيس فيه حياة لأنه يجذب الحديد، وفي «السياسة»، قصة الفيلسوف الذي حصل على الثروة باحتكار معاصر الزيتون.

يأتى بعد ذلك مصادر متأخرة، ويسمى أصحابها بالرواة Doxographers وأشهرهم ديوجين لايرس (القرن الثالث قبل الميلاد) الذي يروى لنا قصة حياته. ثم جالينوس الطبيب (١٣٠ - ٢٠٠) وإيتيوس Aetius من مؤرخي الفلسفة في القرن الرابع، ثم سمبليوس من القرن السادس وهو أحد شراح أرسطو، ثم سويداس Suidas من مؤرخي القرن العاشر الميلادي.

ويقرر هؤلاء المتأخرون أنه كان فلكيا ورياضيا، وأنه عرف العلة الحقيقية لكسوف الشمس، وأنه أول من كشف الدب الأصغر، وأنه نقل علم الهندسة عن المصريين إلى بلاد الإغريق، وعرف بعد السفينة وهي في عرض البحر، وارتفاع الهرم من قياس ظله، واهتمدى إلى بعض النظريات الخاصة بالمثلث والدائرة.

فنحن نرى أن جميع المصادر متأخرة عن زمن حياته بوقت طويل مما يفسح المجال للإنتحال وإلى نسبة كثير من الآراء إليه ونسج الأقايصص حوله.

ونحن لا نعرف هل دون آراءه أو لا. ويذهب بعضهم إلى أنه لم يدون ولم يترك شيئا مسطورا، ويذهب البعض الآخر إلى أنه ألف كتابا بعنوان الفلك الأسود Nautical Astronomy، ويعزو إليه بعضهم كتابا في الاعتدالين، والبعض الآخر كتابا في العلل الأولى. أما كتاب الفلك فقد نظمه شعرا. ويروى جالينوس عن كتاب العلل قوله «الماء هو المادة الأولى ومنه نشأ كل شيء». ولقد أوضحنا ذلك في المقالة الأولى. وتحدثنا رواية أخرى أن أنكسمندر هو أول من دون في الفلسفة، وله كتاب في الطبيعة. ولا يشير أرسطو إلى أى مرجع عند ذكر طاليس، ولا يدري لماذا يجعل الماء مبدأ.

جملة القول إما أن طاليس لم يكتب على الإطلاق، وهذا هو الأرجح، وإما أن كتبه ضاعت منذ عهد بعيد.

٢ - أصله ونشأته :

ليس مولده معروفا ، وقد حدده بعض المؤرخين مثلى زلر ^(١) Zeller بأنه ٦٢٤ قبل الميلاد وجعل وفاته عام ٥٤٦ . ولست أدري كيف انتهى هؤلاء المؤرخون إلى هذا التاريخ ، وكيف حددوا مولده ووفاته . أما برنت ^(٢) Burnet فقد انتهى إلى أنه كان يعيش عام ٥٨٥ ق . م . وهو العام الذي قلنا إنه زها فيه ، من معرفته بكسوف الشمس ، وقد حسب علماء الفلك أن ذلك الكسوف وقع في ٢٨ مايو ٥٨٥ قبل الميلاد ورجحوا إمكان رؤيته من آسيا الصغرى . وهذا التاريخ هو نفس التاريخ الذي يحمله أبولودورس ، وهو مؤرخ يوناني من القرن الثاني قبل الميلاد ، لازدهار طاليس .

نشأ في ملطية من أعمال آسيا الصغرى ، وكانت مدينة تجارية انتشر فيها الرقيق كأغلب المدن الإغريقية ، وظهر فيها صراع بين طبقة الأغنياء والفقراء . ويحدثنا التاريخ أن الشعب في ملطية انتصر في أول الأمر ووضع السيف في رقاب زوجات النبلاء وأطفالهم . ثم استولى الأشراف على الحكم وحرقوا خصومهم أحياء فأضاموا الساحات العامة بأجساد البشر . وقد تقلبت الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في مدينة ملطية خلال القرنين السابع والسادس ، إذ كان الحكم في أول الأمر في أيدي أصحاب الأراضي من الأشراف ، ثم اغتصبه منهم الأغنياء من التجار ، إلى أن حكمها طاغية يستند إلى تأييد الشعب . وعقدت ملطية أواصر الصداقة مع جيرانها وبخاصة ليديا في حكم الملك كروسس Croesus . ونحن نذكر كيف حدثتنا الأساطير أن كروسس رعى الحكمة اليونانية في زمانه ، وأنه دعا الحكماء السبعة إلى لقائه . وأكبر الظن أن صحة طاليس وهو أول الحكماء السبعة لكروسس في حربه ضد بتريا ، كي يشرف على الأمور الهندسية ، وإنشاء القناطر ، هي التي أذاعت القول برعاية الحكماء السبعة .

ويفسر برنت ما يذهب إليه هيرودوت من أن طاليس من أصل فينيقي بأنه

Zeller : Outlines of the Hist. of Gr. Phil. P. 26-28 (١)

Burnet : Early Gr. Phil. P. 40-50 (٢)

أدخل بعض تحسينات على الملاحظة اكتسبها من الفينيقيين . ثم إن اسم والده ويدعى إكزاميس Examyas لا يدل على أصل سامي ، بل هو من كارييا Karia ، وهي من أيرونيا .

طاليس في مصر :

وليس من المؤكد أن طاليس رحل إلى مصر ودرس فيها ، ولو أن الأرجح أنه فعل ذلك ، إذ ينسب إليه تفسير فيضان النيل ، وأن مرجع ذلك إلى الرياح الموسمية . ويقال إن أرسطو ألف كتاباً في فيضان النيل عرفه شراحه ، وذكر فيه نظريات ثلاث للفيضان الأولى لطاليس ، والثانية لاتيمينس ، والثالثة لانكساجوراس .

ويقال أيضاً : إنه اكتسب العلم بالهندسة من المصريين وحمله معه إلى اليونان ، ويحكى برقليس في شرحه للكتاب الأول من أوقليدس أن طاليس كان يعرف كثيراً من النظريات : منها تساوى المثلثين إذا اشتركا في ضلع وتساوت الزاويتان المتجاورتان ، وكان يستفيد من هذه النظرية في قياس بعد السفينة في عرض البحر . وأنه عرف ارتفاع الهرم بحساب رياضي ، لا بحساب عملي كما كان المأثور عند قدماء المصريين .

ويقول فريمان ^(١) Freeman : إنه تعلم الهندسة من المصريين وكان كأسلافه تليد أهل مصر وبابل ؛ لذلك كان الفضل في امتيازه في علم الفلك والهندسة إلى غيره . ولما كان علم المصريين والكلدانيين لا يتعدى جمع المشاهدات ، واستخدام العلم لأغراض دينية وعملية ، فقد تلقف طاليس هذه المشاهدات ، والتجارب ثم نظمها تنظيماً علمياً ، واستخرج منها المبادئ العامة . وليس معنى ذلك أن العلم عند طاليس كان خالصاً نقياً بريئاً عن المنفعة ، فقد نظر في الهندسة البحرية لفائدة الملاحة وذلك بدراسة الرياح والظواهر الجوية .

فلسفته :

يذهب بعض المؤرخين إلى أن طاليس أول العلماء ، كما ذهب البعض الآخر إلى أنه أول الفلاسفة أو الحكماء . ولا ينبغي أن يروى هذا الخلاف ؛ لأن العلم

(١) Freeman : Companiono pre-Socratic Philosophers P. 49-55 (R)

والفلسفة كانا شيئاً واحداً في ذلك الزمن القديم . على أن ظهوره أول ، للفلاسفة أو العلماء فجأة أمر يدعو إلى التساؤل فلا بد أن يكون قد سبقه غيره ، وقد عنيت مدرسة أرسطو ومراحه بذكر المتقدمين على طاليس ؛ كما ذكروا طاليس متصلاً بالبحث العلمي وقدموه على سلفه .

ويقول أرسطو عنه : « لأنه مؤسس هذا الضرب من الفلسفة ، يريد الفلسفة التي تضع المشكلة وتحاول الجواب عنها . مثال ذلك : « ما الحقيقة الموجودة وراء الظواهر ؟ » وفي مثل هذه الأسئلة تنجلي أصالته . لقد أجاب طاليس عن هذا السؤال قائلاً : إن الحقيقة هي « الماء » ، كإجابة أولى ؛ لأنه كان يعتقد أن المادة واحدة وليست متعددة . وجميع فلاسفة ملطية ماديون .

لماذا أثر الماء على غيره ؟

يقول أرسطو : « إنه أثر ذلك لأنه رأى الدور الهام الذي يقوم به الماء في غذاء الحياة ، حتى لقد تخرج الحرارة منه ما دام الكائن الحي حاراً . والماء كذلك جوهر البذور .

ويعترض بعض المحدثين ، مثل : برنت Burnet على أرسطو بقولهم : إن علم الحياة لم يكن متقدماً في عصر طاليس ، وإن قوله بالماء يرجع إلى النظر في الظواهر الجوية . فاختياره الماء ناشئ عن هذا النظر ، وتلك الدراسة . فقد رأى تبدل الماء ثلجاً وبخاراً وضباباً ؛ أما البخار فقد عده الطبيعيون الأولون هواء ، ووجدوا بينه وبين الرياح والنفس والحياة . ومع ذلك فقد كانت للطبيين الأولين نظرات صائبة في علم الحياة . فهذا أنكسمندر تلميذ طاليس يذهب إلى أن أصل الحياة ناشئ من الرطوبة . ولا يغيب عن بالنا أن طاليس اهتم بفيضان النيل ، وأثر ذلك في الإنبات والنماء ، ولا ريب فللماء مدخل في الحياة ، ولقد قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » .

ويحدثنا أرسطو أن طاليس ربما كان قد تأثر بالأساطير اليونانية القائلة بأن « أوقيانوس ، Ocean و تيث Tethys كانا أول كل شيء . ولعله تأثر بأساطير قدماء المصريين ، الذين ساد فيهم مذهب يجعل الماء أصل الكون . وليس ذلك يبعد على من استقى عنه عنهم .

وله رأى فى الكون : فهو يقول إن الأرض تسبح فوق الماء . وهذه محاولة لتفسير علاقة الأرض بغيرها من الأجرام السماوية . ويقول أرسطو إن طاليس اختار الماء ليحمل الأرض ؛ لأن كثيراً من الأشياء كالخشب تقوم فى الماء لا فى الهواء . ويحكى سنكسا قول طاليس إن الأرض تعوم فى الماء كالسفينة ، فإذا تقاذفتها المياه أحسننا بالزلازل . وليس يبعد أن طاليس كان يذهب إلى أن الأرض تبحر فى الماء ، لأن النمو يتوقف على الرطوبة .

وأخيراً يعزو أفلاطون وأرسطو إلى طاليس قوله : كل شيء مملوء بالهة ، وإن فى المغناطيس روحاً تجذب الحديد . وأقام على مذهبه فى أن النفس أو الحياة هى التى تحرك الأشياء . فإذا صح قول طاليس فهو من المؤلهة الذين كانوا يعتقدون فى وحدة الوجود ، أى أن الله والعالم شيء واحد ، وأنه موجود فى كل شيء . وقد سرت هذه الفكرة عنه ، حتى عبده العرب مؤلهاً . قال القفطى : وهو أول من قال إن الوجود لا موجد له إلا الله تعالى العظيم .

وشاعت عن طاليس أقاصيص كثيرة ، منها ما حكاه أرسطو فى كتاب السياسة قال : « يروى أن طاليس رأى بما عنده من معرفة فى علم التنجيم والفلك أن موسم الزيتون سوف يكون موفوراً فى ذلك العام فاستأجر فى الشتاء جميع معاصر الزيتون الموجودة فى ملطية . فلما حان موسم عصر الزيتون واحتاج الناس إلى المعاصر فرض عليهم ما شاء من شروط ورفع الأجر وضاعفه مبيناً أن الفلاسفة إذا شاءوا جمع المال كان لهم ذلك ، ومغزى القصة أن الفيلسوف مشغول عن جمع المال بالتفكير والتأمل وطلب الحقيقة .

وقيل : إنه أول الحكماء السبعة ، ونسبوا إليه أنه راعى العزوبة والعزوف عن الولد ، فى مقابل سولون الذى كان راعى الأسرة والزواج والولد . ويقال إن سولون زاره فى ملطية . وينبغى أن ننظر بعين الشك إلى الحكم التى أجراها المؤرخون على لسانه .

وقيل إنه توفى فى سن كبيرة من الحر والعطش وزحمة الناس عند مشاهدة مباراة فى البطولة الرياضية .

العز بن عبد السلام

- ٢ -

لفضيلة الاستاذ الشيخ حسن العماري
مبعوث الازهر إلى السودان



عمله في البلاغة :

يجهل كثير من العلماء بل من دارسي البلاغة خاصة أن ابن عبد السلام من زمرة علماء البلاغة ولكننا نعدّه أتمّ وذكاء وحده، وإذا كان عبد القاهر وأبو يعقوب وأضرابهما ألفوا في البلاغة على أنها قواعد ورسوم، فإن ابن عبد السلام شغلته فكرة واحدة أخذ يدافع عنها، ويناضل دونها، ويقم البراهين عليها، تلك هي وجود المجاز في القرآن، والخصومة حول هذا الموضوع قديمة؛ فقد أنكر وقوع المجاز جماعة: منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية، وابن حائك، وناس من جملة الصوفية وبعض من المالكية، وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب، وأن العدول إليه من ضيق الحقيقة، والقرآن منزّه عن الأول، والثاني محال على الله تعالى، وقد نشط العلماء من قديم للرد على تلك الشبه ودحضها، فألف موزج السدوسي في الرد على من نفي المجاز في القرآن، وسخر الجاحظ في غير موضع من كتبه من هؤلاء، وصنف فيه سلطان العلماء كتابه المسمى «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز». ولا شك أن جمهور العلماء على وقوع المجاز في القرآن وفي كلام العرب، وأما شبهة الظاهرية فناشئة من عدم التفرقة بين المجاز والكذب، وعدم الوقوف على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الحقيقة سهلة ميسورة، وإنما

الشأن في تقريب المعنى ، وتجميل الأسلوب ، وضرب المثل ، وروعة الاستعارة .
ومن سخرية الجاحظ هؤلاء ما جاء في كتابه الحيوان ، عند الحديث عن النحل قال :
« وقد طعن ناس من الملحدین ، وبعض من لا علم له بوجوه اللغة ، وتوسع العرب
في لغتها وفهم بعضها عن بعض بالإشارة والوحى ، فقالوا : قد علمنا أن الشمع شيء
ينقله النحل مما يسقط على الشجر فيبنى بيوت النحل منه ، ثم ينقل من الأشجار
العسل الساقط عليها كما يسقط الترنجيبين والمن وغير ذلك إلا أن مواضع الشمع
وآثاره أخفى وأقل ، فليس بقي شيء ولا رجيع ، ولا دخل للنحلة في بطن قط ،
وفي القرآن قول الله عز وجل : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال
بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا
يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم
يتفكرون . »

ولو كان إنما ذهب إلى أنه شيء يلتقط من الأشجار كالصمغ وما يتولد من
طباع الانداء والآهواء والأشجار إنما تمازجت لما كان في ذلك عجب إلا بقدر ما
نجد في أمور كثيرة ، قلنا فقد زعم ابن حائك وناس من جهال الصوفية أن في النحل
أنبياء لقوله عز وجل : « وأوحى ربك إلى النحل ، وزعموا أن الحواريين كانوا
أنبياء لقوله عز وجل : « وإذ أوحيت إلى الحواريين ، وما خالف أن يكون في النحل
أنبياء بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء لقوله عز وجل على المخرج العام : « وأوحى
ربك إلى النحل ، ولم يخص الأمهات والملوك واليعاسيب ، بل أطلق القول
إطلاقا ، وبعد فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد من المسلمين وألا تكونوا
مسلمين فلم تجعلون الحجة على نبوة النحل كلاما هو عندكم باطل ، وأما قوله عز
وجل : « يخرج من بطونها شراب ، فالعسل ليس بشراب وإنما يحول بالماء شرابا
أو بالماء نيفا فسماء كما ترى شرابا إذ كان مما يجيء منه الشراب ، وقد جاز في كلام
العرب أن يقولوا جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيها وإن كانوا غضابا

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط ، ومتى خرج العسل من جهة

بطونها وأجوافها ، ومنى حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا ، وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبأسبابه اتسعت ، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة وهذيل وضواحي نجد هؤلاء أصحاب العسل ، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة وعسلة ساقطة ، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا البيان أو طعن عليه من هذه الجهة ^(١) . . وهكذا يصعب الجاحظ ، ويهدر ويهزأ ويسخر ، ولعله ألف كتابه (نظم القرآن) لهذا الغرض ، وقد جاء في كتابه الحيوان فقرات عن كتاب يبدو أنه هو هذا الكتاب قال : « ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف بها ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأناها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالالفاظ القليلة . »

أما ابن عبد السلام فهو يجرى الى غايته في هدوء وصمت ، دون أن يتعرض لمن يجادلهم ويرد عليهم ، حتى أنه ترك النص في أول الكتاب على الغرض الذي ألفه من أجله ، ومع ذلك فهو يصل إلى الغاية ، ويقرطس الهدف ، وقد أعانه على ذلك فهم عميق لمقاصد القرآن وأغراضه ، وخبرة واسعة بالتأويل وعلم جم بأساليب العرب ، وتصرفها في لغتها ، وذهنية مواتية مسعفة .

يظهر أثر كل ذلك في كتابه ، فهو يتبع القرآن آية آية ، ويدكر ما يكون في الآي من حذف ، وما يترتب على ذلك من مجاز ، وربما عمد إلى المجاز وحده فاستخرجه من الآية ، ويعرض كثيرا للمسائل البلاغية غير المجازية ، وقد تحدث عن كل ألوان المجاز فذكر المجاز المرسل وعلاقاته ، والمجاز العقلي وعلاقاته ، وتحدث عن الاستعارة ، وذكر المجاز في الحروف والمجاز في الأفعال ، وقد ألف كتابه قبل أن تقعد البلاغة على طريقة السكاكي فتراه يجمع كل شبيه إلى شبيهه ، فهو مثلا يتحدث عن خروج حروف الاستفهام إلى معان مجازية عند الكلام على الاستعارة في الحرف ، كما يتحدث عن الالتفات في الفعل عند الكلام على الاستعارة التبعية في الأفعال ، وهذه أحسن من طريقة السكاكي وتابعيه الذين وزعوا هذه المباحث في أبواب متفرقة ، بعضها في علم المعاني ، وبعضها في علم البيان .

(١) في هذا النص كلمات غريبة واضحة لعلها من خطأ الطبع ، ولم اهتم إلى تصحيحها .

وقد سلك ابن عبد السلام في بيان الحذف في القرآن طريقين ، فابتدأ أولاً بذكر نوع المحذوف ، فهذا فصل لحذف المبتدأ ، وذلك لحذف جواب الشرط ، وثالث لحذف المضاف إليه وهكذا ... ، ثم يعود فيعرض ، فيرتب سور القرآن ويذكر ما في كل سورة من حذف ، ويتخلل هذا البحث قواعد بلاغية فيقول مثلاً : حذف المفعولات ضربان : ما يصير الفعل فيه كاللازم الذي لا مفعول له ؛ كقوله : « والله يحيي ويميت » ، والثاني ما ليس كذلك ؛ كقوله : « الذي خلق فسوى » ، أما قوله تعالى : « أضحك وأبكى » ، فيحتمل الأمرين ، وهو في هذا الموضع — كعادته في كل موضع — يذكر شواهد كثيرة من القرآن ، وقد جرى على قاعدة في تقدير المحذوف عبر عنها في قوله : « تقدير ما ظهر في القرآن أولى في بابه من كل تقدير » ، وذكر أمثلة منها قوله تعالى : « فمن ينصرني من الله إن عصيته » ؟ تقديره فمن يمنعني من بأس الله إن عصيته ؛ لأنه قد ظهر في قوله فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا . ويكاد كتابه يكون استقصاء لمواضع الحذف في القرآن ، فهو من هذه الناحية ذو فائدة كبيرة لمن يتعمق مزائق التأويل ، ويتهيب منزال التفسير ، ومع ذلك فالكتاب يتضمن قواعد بلاغية ذات بال ، وقد تناولها المؤلف تناولاً سهلاً لا تعقيد فيه ، ولا لجلجة ولا اضطراب . من ذلك قوله : « وأما وصف الفاعل والمفعول بالمصدر ، فقد قيل إنه من مجاز الحذف ، وقيل إنه من مجاز المبالغة في الصفة ، ويجوز أن يكون بعض ذلك من مجاز التعبير بالمتعلق عن المتعلق به ؛ كالتعبير بالأمر عن المأمور به وبالمهزوء عنه ؛ لأنهما قولان عبر بهما عن متعلقهما ، وكذلك التعبير بالسمع عن المسموع وقد يكون بين محلي الحقيقة والمجاز تعلقات متنوعة يصح التجوز بكل واحد منها على ما سنذكره في صفات الرب سبحانه وتعالى ، ومن أمثله في هذا الموضع : « فاحتمل السيل زبداً رابياً ، أي الماء السائل » ، « والسماء ذات الرجع » ، « والأرض ذات الصدع » ، « المطر الراجع في كل عام والنبات الصاعد للأرض » ، « إنه لقول فصل » . ومنها قول الشاعر :

ترتع ما رتعت حتى إذا أدكرت فإنما هي إقبال وإدبار

أي هي ذات إقبال وإدبار ، ثم يقول ولك أن تقدر مثل هذا في جميع ما ذكرناه .

وهنا نراه استشهد ببيت من الشعر ، وليست الشواهد من هذا النوع مستفيضة في الكتاب ، ولكنه يذكر منها جملة صالحة .

وقد يتناول الآية فيذكر ما فيها من أنواع البيان . يقول في قوله تعالى : والسر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، أى بمشيئة ربهم أو بأمر ربهم إياك بذلك ، فالإذن من مجاز الملازمة - أى المجاز المرسل - والظلمات والنور من مجاز المشابهة - يعنى الاستعارة - ونسبه الإخراج إليه صلى الله عليه وسلم من مجاز نسبة الفعل إلى سببه كما ذكرناه آنفا - يعنى المجاز العقلى - . وقد لاحظت أنه يتفق في كثير من القواعد مع عبد القاهر ، إلا أن هناك دلائل كثيرة على أنه لم يطلع على كتابيه في البلاغة ، وحسبنا أن عبد القاهر ذكر الاستعارة والعلاقة وما إليهما من الالفاظ الاصطلاحية ولا أثر لها في كتاب ابن عبد السلام ، على أنه لو اطلع على دلائل الإعجاز لكان له فيما أعتقد منهج آخر في تقدير بعض المحذوفات ، ولما كان لهذا الكتاب نسيم في كتابه على الأقل ، أما السكاكى فكان معاصرا للمؤلف على أن طريقتيهما مختلفان جد الاختلاف .

وكما يذكر بعض القواعد الهامة ، يعتمد إلى نوع آخر له قدره في دراسة البيان ، ذلك أنه يذكر الكلمة ترد في القرآن الكريم فيذكر ما استعملت فيه من أنواع المجاز ، ومن أمثلة ذلك كلمة الركن ، يقول : فهو حقيقة في أركان البناء التي يعتمد عليها ، ثم يتجاوز به عن العشرة المعتمد عليها في النصر تشبيهاً للاعتماد عليها باعتبار البناء على الأركان ، ومنه قوله تعالى : أو آوى إلى ركن شديد ، ويتجاوز به عن القوة لأن المرء يعتمد على قوته في مثل قوله تعالى : فتولى بركنه ، أى بقوته ، وفي مثل قول عنزة :

فما أوهى مراس الحرب ركني ولكن ما تقادم من زمان

وقد يتجاوز به عن الجنود الذين يرجى نصرهم للاعتماد عليهم في مثل قوله : فتولى بركنه ، على قول آخر . وناحية ثالثة في هذا الكتاب . وذلك أنه إذا أخذ في معنى من المجاز استقصاه ، ومن أمثلة ذلك - وهي كثيرة - حديثه عن : النهك ، يقول : وأنواع التهكات كثيرة منها قوله تعالى : هذا نزلهم يوم الدين ، ومنها قول عمرو بن كلثوم :

قريناكم فعجلنا قراكم قبيل الصبح مرواة طحونا

ومنها قول العرب : عتابك السيف . وقول الشاعر : تحية بينهم ضرب وجيع ،
ومنها قوله سبحانه وتعالى : فأتابكم غمّاً بغم ، ومنها قوله : هل ثوب الكفار
ما كانوا يفعلون ، والمراد بالثواب هنا العقاب ، وقوله : هل أنبشكم بشر من
ذلك مشوبة عند الله ، أى عقوبة عند الله ، فإن الثواب هو الجزاء بالخير ، فإذا
أطلق لفظ الثواب على الشر كان تهكاً واستهزاء ، ومنها قوله : وإن يستغيثوا
يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، ، أما قوله يستغيثوا لحقيقة معناه يطلبون
الغوث من شدة العطش ، وأما قوله يغاثوا فهكم واستهزاء بهم إذ لا غوث فيما
يشوى الوجوه ، ومنها قوله : فبشرهم بعذاب أليم ، ، وأما قوله : إن هذا
القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً
كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ، فإن البشارة
فيه باقية فيه على حقيقتها ؛ لأن الله بشر المؤمنين بأنه يأجرهم أجراً كبيراً ،
وبأن يعذب أعداءهم عذاباً أليماً ، ومن أخبر بعقوبة عدوه وإهائته كان
ذلك إهانة له .

ولا ينسى أن يتحدث عن التشبيه وضروبه ، وعن الكناية وتعريفها
وأمثلتها ، وكونها من الحقيقة أو من المجاز ، وعن المجاز على المجاز ، والجمع بين
الحقيقة والمجاز ، وقد رأيت العلامة الصبان استند على رأيه فى الجمع بين الحقيقة
والمجاز عند الحديث عن التضمن فى باب تعدى الفعل ولزومه ، وفى الكتاب
بعض الفوائد النحوية والصرفية ، ولكنها قليلة ، وبحوث أخرى لا تتعلق بالبلاغة ،
كالكلام عن بيان اللغات التى نزل بها القرآن وعن مقاصد القرآن ، وعن جملة من
المواعظ ، وفى ختام القول نقول مع قاضى أسوان شمس الدين عمر بن عبد العزيز
ابن الفضل تليد العز :

جاوزت حد المدح حتى لم يطق نظماً لفضلك للورى نظام

فعلبك يا عبد العزيز تحية وعليك يا عبد العزيز سلام

قصص الفرائد السنية

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى الراجحي

مبعوث الأزهر في كلية المقاصد الإسلامية صيدا - لبنان

إنني سأخوض في قصص القرآن على طريقتي الخاصة التي طالمًا نومت بها على صفحات هذه المجلة للقرآن : المعاني واحدة أو كالأحادة ، لكنها تذكّر في أكثر من موضع بعبارات تختلف إيجازًا وإطنابًا، وتقديمًا وتأخيرًا، وذكرًا وحذفًا ونحو ذلك .

لقد تناولنا فيما مضى بالمقارنة والتحليل بعض آيات من غير القصص تتجلى فيها هذه الظاهرة ، وتناولنا كذلك فيما مضى بالمقارنة والتحليل بعض آيات من قصة واحدة تتجلى فيها هذه الظاهرة ، وزيد في هذه الجولة أن نتناول بهذه الطريقة فئات من الآيات في أكثر من قصة واحدة تتجلى فيها هذه الظاهرة .

وإذا كان ذلك كذلك ومكان قصص الرسل يحكي أقوالًا قيلت من الرسل لأقوامهم ، وأقوالًا قيلت من الأقوام لرسلهم ، ثم يبين ما آل إليه هذا الصراع مع التعليق عليه ^(١) ، فإننا سوف نجعل كل قبيل من هذه الفئات الثلاث مرحلة من مراحل البحث ، نضع في كل مرحلة ما يترامى لنا من مفارقات في الآيات التي تنضوي تحت لوائها وتخضع لموضوع بحثنا ، مما يتفق ويفترق ؛ أما ما يفترق ولا يتفق أو يتفق ولا يفترق فليس لبحثنا فيه ، وليس له في بحثنا كبير مجال .

المرحلة الأولى في الآيات التي تحكي أقوال الأنبياء لأقوامهم وفيها مفارقات :

(١) راجع القصص في السور : الأعراف ، هود ، الفجر ، المؤمنون ، وغيرهما فإليك واجده وهو لا يكاد يخرج بك من ذلك .

المفارقة الأولى : قصة نوح - سورة الأعراف : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله . قصة نوح سورة المؤمنون : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله .

قصة هود سورة الأعراف : وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله .
 هود : وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله .
 صالح : وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله .
 هود : وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله .
 شعيب : وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله .
 هود : وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله .
 العنكبوت : وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله .
 نوح : نوح : إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم اعبدوا الله .

أقوال الرسل لأقوامهم حكيت نارة على سبيل الاستئناف ، وأخرى على سبيل العطف بحرف الفاء ، فإذا كان كل من الفصل على تقدير سؤال والوصل بالعطف بالفاء جائزا بلاغة في أى موضع من هذه المواضع ، فهل من مرجح لوجود كل طريقة حيث وجدت ؟ الجواب : نعم ، ومرجح عظيم . فإن قصة نوح أصل لهذه القصص كلها ، خارجا لأنه أول رسول ، وحكاية لأنها تصدرتها في هذه السور وغيرها . ولما كان الذكر أصلا والحذف فرعاً . كان أطراد الوصل بحرف الفاء في قصة نوع مع أطراد حذفه في غيرها ، من وقوع الأصل في الأصل والفرع في الفرع . ومن توابع ذلك أنه أطرد فيها التصريح بفعل الإرسال وتبعه أطراد التصريح بحرف الفاء لعطف القول على الإرسال دون شيء من ذلك كله في بقية القصص . ومن وجه آخر : قد كان نوح في تبليغه الرسالة أعنف وأنشط من جميع هذه الرسل ، وحرف الفاء أشد مناسبة لهذه المعاني لإفادته المسارعة . . . ومن وجه ثالث : كان تقدم قصة نوح على سائر القصص مدعاة لذهن السامع ، بعد إحاطته بما فيها من معانٍ وحين يشرف على ما بعدها من القصص ، أن يستشرف

ويتشوف لمعرفة حال ما بعد نوح فكان ذلك في معنى سؤال يناسبه الاستئناف
إجابة عليه (١).

لم يشذ عن هذا التخريج ويخرج عن هذه القاعدة إلا قصة نوح في سورة
نوح؛ فقد حكى القول فيها بطريقة الاستئناف دون العطف؛ وقصة شعيب
في سورة النكبات فقد حكى القول فيها بطريقة العطف دون الاستئناف.
ولعل ذلك - والله أعلم - لأن للقصة في الموضوعين نسيجا آخر جعل المدى بطول
بين فعل الإرسال والقول في قصة نوح، فكان الفصل أنسب، وجعل قصة
شعيب تضغط ويهدف فيها إلى النهاية التي حكيت بحرف الفاء المترادف في قوله
تعالى: فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، فكان حرف الفاء
في صدرها أنسب.

المفارقة الثانية: سورة الأعراف قصة نوح: قال يا قوم ليس بي ضلالة
ولكني رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله
ما لا تعلمون. أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا
ولعلكم ترحمون.

وفي سورة الأعراف قصة هود: قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني
رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين. أو عجبت
أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء
من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفachون...
هذان القولان من نوح وهود لقوميهما، يشتد بينهما التشابه ومظاهر الاقتران
فيهما نحصرها فيما يلي مع الإجابة عليها.

أولا: يقول نوح: ليس بي ضلالة، ويقول هود: ليس بي سفاهة. وجوابه
أن كلا منظور فيه إلى السابق. فقول نوح سبقه قول قومه له: إنا لراك في ضلال

(١) تركز هذه الاجابات على مسائل لا تسوغ الافاضة فيها أثناء هذه الدراسة إنما يرجع الى
تحقيقها في مظاهرها، وذلك ككون كل من الوصل والفصل جائزا بلافة في هذه المواضع وكون الذكرا أصلا
بالنسبة للهدف، وكون قصة نوح أصلا بالنسبة لغيرها خارجا وحكاية، وكون نوح كان أمضى في رسالته
وأكثر مجادلة يدعو قومه ليلا ونهارا وسرا وعلنا.

مبين ، وقول هود سبقه قول قومه له : إنا لنراك في سفاهة . فاشتغل كل نبي بنبي ما رمى به حذوك الشيء بالشيء . ولكن لماذا رمى نوح بالضلال ، وهود بالسفاهة ؟ كلام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير - سورة الأهراف أن هوداً كان يدعوهم إلى عبادة الله ، وترك عبادة الأصنام ، ويبين أنها باطلة لا تملك شيئاً ، فكذبوه فى دعوته ، ونسبوه إلى السفاهة والتطاؤل على الأصنام والقدح فى ذاتها وذات من عبدها منهم ومن آبائهم . أما نوح فكان يقول ذلك لقومه ويزداد أنه يأخذ فى صنع السفينة فوق البر ، فلأنهم لم يكن لهم عهد بالسفن ، أو لأنه كان يصنعها حيث لا ماء ، فلم يفقهوا سر عمله ، رموه بالضلال ، وهى كلمة منتشرة فى الواقع شاملة لكل خطأ فكانهم أرادوا أنه ضال عن الصواب فى كل ما يأتى ويذر . هكذا يؤخذ من كلام الرازى . لكن الذى نعرفه ، وتدل عليه القصة فى سورة هود . أن نوحاً لم يأخذ فى صنع السفينة إلا بعد اليأس من قومه وانتهاء أدوار المجادلات والمقاومات ، فلا جرم قد كان رمية بالضلال قبل الأخذ فى صنع السفينة . فالأظهر هندي - إذا كان لمثل عند - أن اختلاف الضلال مع السفاهة لاختلافه فى ذاته عن حكى عنهم ، واختلافه فى ذاته عما لا سؤال فيه لأن كل قوم كما بدا لهم تكلموا ، وبما قذف الشيطان فى نفوسهم نطقوا . هذا من وجه ، ومن وجه آخر لعله أوجه : أن الرمي بالضلال أعلى فى الطغيان من الرمي بالسفاهة على ما سبق بيانه فى كلام الرازى ، وقوم نوح كما نطق القرآن عنهم ، كانوا هم أظلم وأطغى . لكن ما بال السفاهة بالتاء فى قول قوم هود له : إنا لنراك فى سفاهة ؟ والضلال بدونها فى قول قوم نوح له : إنا لنراك فى ضلال ؟ . هلا نسوتى بينهما تذكيراً أو تأنيثاً أو عكس الحال ، وكل ذلك جائز عربية ؟ الجواب أنه إن جاز عربية فإنه لا يجوز بلاغة ، فكل طريقة بموضعها أصابت المحز لا تصالح فى غير موضعها ، ولا يصلح غيرها فى موضعها . فالضلال أعم وأدل على المراد من الضلالة لإيهامها الوحدة ، والسفاهة أبلغ وأدل على المراد من السفه لأنها مصدر مضموم العين ، وهو مصدر مكسور العين ، ومضمومها يفيد من قوة الاتصاف وملازمة الصفة للوصوف ما لا يفيد مكسورها حتى لنقول كشب اللغة . وهذا

قصص القرآن الكريم

٣٧١

الباب للأوصاف الخلقية ، وهي التي لها مكث . ولك أن تحول كل فعل ثلاثي الى هذا الباب للدلالة على أن معناه صار كالغريزة لصاحبه ^(١) ، .

ثانيا : يقول نوح لقومه : وأنصح لكم ، ويقول هود لقومه : وأنا لكم ناصح . فالأولى جملة فعلية تفيد التجدد والحدوث مرة بعد أخرى ، والثانية جملة ، اسمية تفيد الثبوت ؛ وذلك لأن نوحا رمى بالضلال وهو من صفات الافعال التي تتجدد ويتنقل صاحبها من فعل إلى فعل ، وهوداً رمى بالسفاهة وهي أشبه بالملكات الثابتة ، فكان رد كل شبهة على شاكئها ؛ وإما لأن نوحا كان أمضى كما مضى في تبليغ الدعوة وتجديد النصح لقومه ليلا ونهارا وسراً وجهارا .

ثالثاً : يقول نوح لقومه : أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلمكم ترحمون . ويقول هود لقومه : أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء .. الخ

ففي مقالة نوح دون مقالة هود قوله : ولتتقوا ولعلمكم ترحمون . ويقول الفخر الرازي فيها : إنه حيث سبق ذكرها في قصة نوح علم أن الإنذار عاقبه التقوى والرحمة لمن انتفع به ، فحصل الاستغناء عن إعادة ذلك في قصة هود التالية لها . وأولى منه أن نقول : إنه سبق للتقوى ذكر في نفس قصة هود في مقالته الأولى لقومه ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فأغنى ذلك عن إعادتها وليس لها سابق ذكر في أقوال نوح لقومه ، كما أن قول نوح لقومه : ولعلمكم ترحمون ، قريب من قول هود لقومه : لعلمكم تفلحون ، بحسب تذكيره لهم بما اختصوا به دون قوم نوح من كونهم خلفاء قوم نوح في الأرض وزادهم الله بسطة في الخلق والآلاء .

(١) شذا العرف في فن الصرف الشيخ الخلاوي : التيسير الثالث للفعل بحسب التجرد والزيادة .

نجاوالب شعور

لفضيلة الاستاذ الشيخ عبد المقدم أبو سعيد

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »

حديث شريف

هذه صفة تضع الإنسانية على أقوم أوضاعها ، وتجيء منها في أهم عياداتها ، وهي تعبر عن أفبل ما في الإنسان من شعور ، وأدق ما فيه من حس ، وما يسمو به عن رتبة الأحياء الأخرى ، حتى قيل : « الإنسان حيوان ذو عطف » ، وبذلك اعتبرت خاصة مميزة له ، رافعة للشركة ، ونما لا ريب فيه ، أن الإنسان حيوان بغيض إذا كان لا يشعر بمكان هذا الشعور ، أو تجرد منه ، فالإنسان لا يشعر بالفردية وحدها ، وإنما يجد تمامه في هذه الصفة ، ولذلك قيل : « الإنسان مدني بطبعه » . فهذا الشعور في حدوده تكتمل عليه الإنسانية في حدودها ، فلو لا المشاركة الوجدانية التي تخفف من حدة أنانيته الجارفة : لكان الإنسان أسوأ أثراً من أي حيوان آخر : وهو بين الأفانية وهذا الشعور في مد وجزر : بين الشر والخير ، والباطل والحق ، إذا انتصر أحد الشعورين تبعه لازمه بدون تخلف أو انفكك ، ولن تجد إنساناً فاضلاً إلا وعنده أوفى قسط من هذا الشعور السامي ؛ فهو روح إلهي في طبيعة بشرية ، ومعنى غيبي في حروف من أشباح الوجود ، وكذلك تعطي يد الله بعض المعالم الحية سرّاً من أسرارها ، يكون لها به ما للأحجار الكريمة من البهجة والرواء ، وتمسحه بيسم نورها ، فيبدو درة وضيفة في حدود المادة المظلمة ، وهذا بعض من إعجاز الله في الخلق ، أو جانب من دلائل القدرة الغيبية في الناس .

وهذه المعالم الحية تشتق من طينة الإنسان وطبيعته ؛ لتبلغ بهم العظمة ، وتم فيهم حجة الله ، وهؤلاء يكونون من النوع الإنساني كعنى الإنسانية ، فيهم حقيقته وفيهم معناه السامى ، وهذا السر فى إكبار الجماعة لأولئك الرموز البشريين ؛ لأن فيهم ما توزع فى الجماعة على مثل عدسة البلور تجمع خيوط النور وتضمها فى بؤرة ؛ لتعكس شكلا متجانسا من أشكال متفاوتة ، فهذا المعنى السامى وذلك الشعور النبيل هو مدار العظمة والشخصية ، وإن لم يتضح فى ظاهرة أو ظاهرات محدودة ، ولم يتحدد كما لو وضعت عليه اليد ، فلم يزل يغزو القلوب ، ويقتحم من النفوس مناطقها الخفية .

ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذى أقام كل تعاليمه الروحية والزمنية على أساس من هذا الشعور ، وزاد مبالغة فى الاعتداد به ، أن جعله قاعدة الإيمان ، فإذا كان الإسلام فى أعمال الظواهر قد بنى على خمس ، فإنه فى المنطقة الإيمانية لا يقوم إلا على تحقق هذا الشعور ؛ فالتبى صلوات الله وسلامه عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، فهو يجعل تمام الإيمان وكاله موقوفا على أن يحب المؤمن للمؤمن ما يحبه المؤمن لنفسه ، والإنسان لا يجب أن يكون إلا حيث السعادة والهناء ، والعلمانية والسكينة .

فالإسلام أقام تعاليمه على النفع ، وتبادل الحب ، والاستواء فى أسباب الإخاء ؛ ليضع التصميم الصحيح للحياة البشرية ، وقد استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يقدم للعالم أجمع فى وقت وجيز هذا النموذج المحكم ، فكان فى تجانسه ونظامه شيئا مدهشاً ، وطريقاً معجباً بلغ من الإتقان غايته ، ومن السكال نهايته وحين قدر لهذا العالم أن يفتح عينيه على حقائقه سارع الناس فى دين الله أفواجا . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجرير بن عبد الله البجلي وقد جاء يبأيه على شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله : « والنصح لكل مسلم » ، فجعل المشاركة الشعورية صنوا لكلمة الشهادة ، ولعل ديننا من الأديان لم يبالغ فى اعتبار هذا الجانب مثل دين محمد صلوات الله عليه ، وهكذا جاءت صحابته فى دقة الشعور نحو الغير كالموازن لا يفوتها منه شيء ، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وفى قصص عمر رضى الله عنه عبرة وذكرى ، وخطة فوق مناهج الناس .

وندع الآن الحديث للرواة فيما حفظوا من آثار في هذا الجانب ، فقد روى ابن عساكر في التاريخ الكبير عن أبي مشام :
أن سائلا خرج يتخطى أزقة المدينة ، حتى أتى باب الحسين رضى الله عنه ، فقرع الباب ، وأنشأ يقول :

لم يحب اليوم من رجاك ومن حرك من خلف بابك الحلقه
أنت ذو الجود أنت معدنه أبوك قد كان قاتل الفسقه

وكان الحسين عليه السلام واقفا يصلى : تخفف من صلاته ، وخرج إلى الاعرابي ، فرأى عليه أثر ضر وفاقه ، فرجع ونادى بخادمه ، فأجابه : ليك يابن رسول الله ! قال : ما تبقى معك من نفقتنا ؟ قال : مائتا درهم أمرتني بتفريقها في أهل بيتك ، فقال : هاتها ، فقد أتى من هو أحق بها منهم ، فأخذها وخرج يدفعها إلى الاعرابي وهو يقول :

خذها فإني إليك معتذر واعلم بأنى عليك ذو شفقه
فأخذها الاعرابي وولى وهو يقول : . الله أعلم حيث يجعل رسالته ،

مطهرون نقيات جيوبهم تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا
أنتم أنتم الاعلون عندكم علم الكتاب وما جاءت به السور
من لم يكن علويا حين تنسبه فسا له في جميع الناس مفتخر

كما روى أنه عليه السلام دخل على أسامة بن زيد وهو مريض : فسمعه يقول :
واغماء ! ، فقال له الحسين : وما غمك يا أخى ، قال : ديني وهو ستون ألف
درهم ، فقال الحسين : هو علي . قال : إني أخشى أن أموت . فقال : لن تموت
حتى أقضيا هنك ، فقضاها قبل موته .

ولعل هذه أصدق صورة تعكس علينا ما نهدف إليه ، فقد تأثر إلى حد
كبير بهذه العاطفة ، وشعر بشعور أسامة رضى الله عنه . فهو يشارك الناس
ما يقع في وجدانهم ، ويحس بنفس الإحساس الذي يمر في سماوة نفوسهم ،
فيألم إذا تألموا ، ويسر إذا سرورا .

وهذا اعرابي يأتي مسجد رسول الله ، فيعقل ناقته بيباب المسجد ويدخل ،
وكان الحسين رضى الله عنه جالسا فيه ، كما كان عبد الله بن الزبير جالسا في ناحية

منه ، وعتبة بن أبي سفيان في ناحية أخرى ، فوقف الأعرابي على عتبة وسلم فرد عليه السلام ، فقال الأعرابي : إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً ؟ فرفع رأسه الى غلامه وقال له : إدفع اليه مائة درهم . فقال الأعرابي : ما أريد إلا الدية تماماً ، ثم تركه ووقف على عبد الله بن الزبير وقال مثل ما قال لعتبة ، فقال عبد الله لغلامه : إدفع اليه مائتي درهم . فقال له : ما أريد إلا الدية تماماً وتركه ، وأتى الحسين ، فلم عليه وقال : يا بن رسول الله إني قتلت ابن عم لي وطولبت بالدية فهل لك أن تعطيني شيئاً ؟

وهنا يتجلى أنبل شعور ، وأجمل إحساس في سيد الناس وابن سيدهم ، فيأمر له بعشرة آلاف درهم ليقتضى بها دينه ، وبأخرى مثلها ؛ ليلم بها شعثه ، ويحسن بها حاله ، وينفق منها على عياله .

فهو يعطيه لاجودا فحسب ، وإنما موازنة منه ، ومشاركة له في ملة نزلت به . وإن حقاً على المؤمنين أن يتوجه بعضهم لبعض كما يألم الجسد إذا تألم عضو منه .

وكأنني بالمسلم الحق وله اتصالات تربطه بكل الناس ، وله في قلبه جهاز مرهف حساس يشعره بشعورهم ، فيواسي المكوم ، وينصر المظلوم ، ويعطي المحروم ، ويبذل المعروف ، ويغيث الملهوف .

وإني لأرى أن الذي لم يتمتع بهذا الشعور الثبيل أصم النفس ، لم يتصل بباطنه بنعمة الوجود ، فهو يعيش في عالم مهجور قفر ليس فيه حي ولا حياة ، أنكر ما يحسه الناس . فأنكر الناس ما يحسه ، وبعد عنهم فبعدوا عنه ، وعاش في وحدة قاتلة ، لا يحمد من يسليه أو ييكبه ، ونسى أو تناسى أن الشريعة الغراء بالعت في وجوب محبة بعضنا لبعض حتى جعلتها شرطاً في الإيمان ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا .

وما أجمل أن نرجع إلى تعاليم ديننا ، وسنة نبينا ، مثل المؤمنين في توادهم وتواضعهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحميمية .

عجالات في الأدب :

لمحات خالدة

بقلم الأستاذ كامل محمد عجلان
المدرس بمعهد القاهرة

في اليسان الخلد والإشراق المصنع ، والتعابير الموشاة والألفاظ المتخيرة
عند أدباء العرب . صور لماحة وضاعة نابضة بالحوية تلبس في موحياتها صبغة
الإنسانية ولون العالمية المجردة ما بقيت الحياة والاحياء .

ولإذا عرف التراث العربي بخصائص المجائين في التنوع اللفظي والإبداع
التعبيري وصوغ ، القوالب ، التي تجرى على الألسنة وتعلق بالاسماع وتلي
، تداعى المناسبات ، في كل موقف نفسى أو مدرج فكرى إذا عرف التراث
بهذا وبغيره من المميزات ، فإننا نعلم الماضين من عباقرتنا ومفتنى الخلود في أدب
العرب عامة والإسلام خاصة . إذا أغفلنا حكمنا وتابعنا فيه خطوات الأقلام التي
تعبرون أن تتعمق في مسائل العبقرية الخلاقة ، والقرينة الثرة من منابع غاصة
بموارد تغذى النفس وتروى العاطفة وتلهب الحواس وتقيم وتقوم الفكر ، وأخيرا
تسمح عن الكتّابين سمائب أرهقت حقول نتاجهم من جهامة الزواجر المفروضة
والعواصف المحترقة بين معارك المتعصبين ضد الأدب العربي :

والادب الصراح — يعلم الله — براء من معايير تقوم على التحيف والسيح
قرب شواطئ تحتضن الضحل من المعاني والافكار ، والكدر من الاغراض
الهزيلة والاهداف السطحية فيما يهم الفرد ويحزب الجماعة .

وإني لواضع أمام القارىء قدراً مقبوساً من أثر الجاحظ ، وهو معروف
بغزارة الترادف ، وإطالة اللفظ في تكاثر بياني ، وتدقيق مطنب مطيل .

واخترت من براعة الجاحظ متعمداً الإصرار على أن المظنب الصانع لا ينسى ما وراء أثره من تظليل الصورة النفسية ، وإرسال أشعاع الجلال فيها إلى مدى فسيح يريح المتأمل في ، الإطار ، ، والمتروى في أصل الفكرة ، والمتأسى بالغرض الأول عنده ، إذا كان على بيئة مقننة .

وعندى وعندك أيها القارىء : إذا ضيقنا بالزمان وأهله ، وأردنا ذمه لنروح عن صدرنا طوفنا مع الجاحظ ، وكتبنا بما خطه في رسالة يبك فيها شكاته : « كتبت إليك وحالي حال من كثفت غموه ، وأشككت عليه أموره ، واشتبه عليه حال دهره ومخرج أمره ، وقل عنده من يثق بوفائه ، أو يحمده مغبة لإخائه لاستحالة زماننا وفساد أيامنا . وقديماً كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبت المشتبهات عليه من شئونه تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحصد مغبة مكروه العاقبة . فنظرنا إذ حال عندنا حكمه وتحولت دولته ، فوجدنا الحياء متصلاً بالحرمان والصدق آفة على المال والقصد في الطلب بترك استعمال الفسحة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل دليلاً على سخافة الرأي ، إذ ضارت الحظوة الباسقة والنعمة السابغة في لؤم المشيئة وثناء الرزق من جهة محاشاة الرخاء ، وملا بسة معرفة العار ، ثم نظرنا في تعقب المتعقب لقولنا والكاشر لحجتنا ، فأقنا له علماً واضحاً ، وشاهداً قائماً ، ومناراً بيناً ، إذ وجدنا فيه من السفولية الواضحة ، والمشايب الفاضحة ، والكذب المبرح ، والخلف المصرح ، والجهالة المفرطة ، والركاكة المستغففة ، وضعف اليقين والاستنبات ، وسرعة الغضب والجراءة ، قد استكمل سروره ، واعتدلت أموره ، وفاز بالسهم الأغلب ، والحظ الأوفر ، والقدر الرفيع . »

وينساب الجاحظ معبراً ومصوراً حتى يعطيك من طرف ريشته ما تعيش فيه ، وما تجد في روحه وريحانه أو شواظه ونيراته ما يكون لك منه العزاء .

ولا تستطيع أن تنكر الاشتراك معه في الدوافع وإن اختلف الزمان وبعد ما بينك وبينه من شقة العصر والأوان ، لأن النفس البشرية هي النفس ولذلك

تجده معك ، وتجده معك ، وترددان معاً بعد الاتفاق ، فهذا دليل أن الطلاح
أجدى من الصلاح وأن الفضل قد مضى زمانه وعفت آثاره وصارت الدائرة
عليه كما كانت الدائرة ضده ، ووجدنا العقل يشقى به قرينه كما أن الجهل والحق
يحظى به خديته ، .

* * *

وكلنا ومعنا الجاحظ نرجع في تداعى المعانى ونستهدى من الشعر ما يجمع
ويجمعنا على النشيد الذى صاغه المتألم المتأمل . صاغه لنفسه وصاغه لنا فى
زمانه وزماننا :

تحامق مع الحق إذا ما لقيتهم ولاقم بالجهل فعل أخى الجهل
وخلط إذا لاقيت يوماً مخلطاً بخلط فى قول صحيح وفى هزل
فإني رأيت المرء يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

* * *

وتلك شفتنة المتألم كلما دخل فى واد ترحم فى جده على خصوبة الماضى ،
ولعن ما يرعاه من أشواك وما يدمى أقدامه وأنامله فى ملاعب قصت عليه الحياة
والأحياء أن يدرج فى جوائنها ، أراد أم لم يرد نأح أم غنى .

وبمثل هذا الشاهد — وما أكثر أشباهه — تجدنا فى حاجة إلى أدبنا القديم
وفى حاجة ملحة إلى أن نخلع عن أهينا ، المظار الأسود ، الذى شوه أمام الكاتبين
دسم الموائد المنمقة والطرائف المعتقد حتى ولو كانت القوارير من فضة والدنان
من عسجد وكانت قرارات الكاسات من تهاويل عبقر وترتيل الحور .

* * *

والرأى عندى أن زادنا الادبى ونشأة أبنائنا فى حاجة إلى النبع الأصيل ، وإن
كنا لاندافع محدث جداول تنصب فى محيط الحياة الجديدة التى ألمت بنا فى تقارب
المدنيات وتلاقى الحيوانات فى عصر خضع للسرعة وشد فى عجالات ، الآلة ،
وأجنحة المحلقات على بساط الريح .

* * *

وعليها أن نحفظ موادنا الحثامة إذا شكلناها بمسحذات الفن مما لا يقطع عليها إصالة العلقه بالتربة الشرقية والمهد العربي والإرضاع الإسلامى : لأننا إذا قطعنا الوشائج — كما يصنع بعض الكتّابين — ضعنا فى خضم لا ساحل نأوى إليه ولا عاصم لنا إلا الاهتداء بالنجم المعجز والفلق الذى لا ينطفى ضياؤه وهو القرآن الكريم .

بذلك يعود القلم العربي المحدث إلى مائدة كانت دسما لأولنا ولا تزال غضة
شبهة لمن يتعلق حوالها وتطوف لقطف من ثمارها الدانة .

ولله سر في أن يكون أدبنا نسيج وحده منها تعددت محاسن الآداب الأخرى ،
فإننا نتفرد بركانه أسستها السماء ورفعت قواعدها فطرة الرسول الذي لا ينطق عن
الهووى وما خلفه من أدب إنما هو قبس من التنزيل وكل شاد لا يطرب إلا إذا
ورد معين الخلود ، وسلك بعد ذلك مسلكاً ذاللاً محدثاً أو مهتماً مُعَبِّداً .

أبو الشمقمق

أبو الشعثمق شاعر أديب ، يعتبر من ظرفاء أهل الأدب ، وله في وصف حاله وفاقة أشعار طريفة يتناقلها المعنيون بالأدب ، وكان ملازما بيته في أطمار مسحوقة وأهدام بالية . كان يزوره كثير من العارفين بفضله ، ويستملحون أحاديثه ويتناقلونها للتندر بها . كان من عادته إذا طرق عليه الباب أن يقف خلفه فينظر من بعض فرجه إبرى من الذى طرقه ، فإن رآه محبا له صادق المودة ، فتح له وأدخله ، وإلا أصر على الصمت حتى ينصرف الطارق بأما من لقائه .

وقد أكثر في شعره من وصف حاله ، فمن ذلك قوله :

أنا في حال تعالى الله ربي أي حال

ليس لي شيء إذا قِيلَ لِمَن ذَا قُلْتَ ذَا لِي

ولقد أهزلت حتى تحت الشمسي خيال

ولقد أفلتت حينئذ في ذلك الحين الذي كان لي معكم في هذا اليوم

فتح القسطنطينية

لحضرة الأستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن
المدرس بالمدارس الثانوية

إن حادث فتح القسطنطينية في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي على يد السلطان محمد الفاتح يعتبر من الحوادث الحاسمة في التاريخ؛ لأنه كانت له آثار ونتائج بعيدة المدى. ولكي ندرك مدى خطورة ذلك الحادث ينبغي أن نعرف شيئاً عن أهمية تلك المدينة، تطل هذه المدينة العتيقة على مضيق البسفور الذي يفصل البحر الأبيض عن البحر الأسود، كما يعتبر أضيق منطقة يـمكن منها الاتصال بين أوروبا وآسيا؛ ولذلك تعتبر القسطنطينية بهذا الموقع الفريد أخطر نقطة استراتيجية في منطقة الشرق الأدنى بأسرها، وقد كانت هذه المدينة تسمى بيزنطة، وبدأ نجمها في الصعود عند ما جعلها الإمبراطور قسطنطين الأكبر عاصمة للدولة الرومانية في مطلع القرن الرابع الميلادي. ولما انقسمت الدولة الرومانية الكبرى في أواخر ذلك القرن إلى قسمين لكل منهما إمبراطور خاص، أصبحت القسطنطينية عاصمة الجزء الشرقي من الدولة، والذي صار يعرف بالدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية. وإلى هذا الموقع الممتاز يرجع الفضل في بقاء القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية زهاء عشرة قرون بعد سقوط الدولة الرومانية في الغرب، وإليه أيضاً يرجع الفضل في بقائها عاصمة للدولة العلية زهاء خمسة قرون. وهذا الموقع المنيع يفسر لنا لماذا كانت سياسة روسيا طيلة العصور الحديثة سواء في عهد القيصرية أو في عهد البلشفية تعمل بكل ما أوتيت من قوة للاستيلاء على القسطنطينية لكي تصل بوساطتها إلى البحار الدفينة.

وإن هذا الحادث الخطير وإن كان قد تحقق في القرن الخامس عشر إلا أن بداية التفكير فيه ترجع إلى ما قبل ذلك بثمانية قرون عندما حاول معاوية بن

أبى سفيان سنة ٦٥٣ م غزو القسطنطينية ولم يتخذها من تلك المحاولة سوى مصرع الخليفة عثمان والفتنة التي أعقبته ، ثم قام المسلمون بعد ذلك بعدة محاولات لتحقيق ذلك الغرض كان أهمها جميعاً ما حدث في مستهل القرن الثامن في عهد سليمان ابن عبد الملك سنة ٧١٧ م . وكان إخفاق هذه المحاولة ذا آثار عميقة في الدولة الإسلامية ، وقد ساعد الدولة البيزنطية على صد هذه المحاولات جميعاً مناعة مركز القسطنطينية وثراؤها وقوة أسطولها وحماس أهلها في الدفاع عنها ، فلما قامت الدولة العثمانية جهل سلاطينها فتح القسطنطينية قبلة أنظارهم ، وما زالوا يعملون لذلك الغرض بإلحاح حتى أتى محمد الفاتح سابع سلاطينهم أن يحقق هذا الحلم ويتوج جبينه بإكليل ذلك النصر الذي هز الشرق والغرب .

العوامل التي سهلت الفتح :

إن الأحوال الواضحة في الدولة البيزنطية إبان عهد العثمانيين والظروف المحيطة ، كان لها أثر أى أثر في تسهيل فتحها ، وإن الحملة الصليبية الرابعة وما تمخض عنها من إقامة دولة لاتينية في القسطنطينية استمرت زهاء ستين عاماً (من سنة ١٢٠٤ - ١٢٦١ م) قد أثر في كيان الدولة البيزنطية فأضعف أسطولها وأفقدها السيادة التجارية في البحر الأبيض ، فلما عادت الدولة بعد ذلك إلى عاصمتها لم تجد المال الكافي ولا القوة البحرية اللازمة لتأمين سيادتها مما مكن العثمانيين من أن يسلبوا من جسم الدولة أجزاء كبيرة بالتدريج حتى انتهى الأمر بأن أصبحت الدولة قاصرة على العاصمة العتيقة وشقة صغيرة من الأرض حولها .

الاستعداد للقتال :

بعد أن تربع محمد الثاني على عرش آل عثمان ، ووطد أركان الأمن داخل حدود دولته المترامية الأطراف ، أخذ يرنو ببصره نحو القسطنطينية العظيمة وبعد العدة للاستيلاء عليها ، وكان محمد شاباً مقداماً طموحاً بعيد النظر ينفذ إلى غايته نفاذ السهم إلى الرمية ، كما كان يعرف كيف يحتفظ بسرّه لنفسه ، حتى لقد أثر عنه أنه قال : لو أن شعرة من ذقنه عرفت ما تضم عليه جوائحه لبادر بانتزاعها .

وقد كان السبب الذي حدا به إلى مبادرة بزنطة بالشر أن آخر أباطرتها قسطنطين بالبولوجوس انتهز فرصة ثورة نشبت ضد السلطان في آسيا الصغرى ،

وأرسل إليه يطلب زيادة نفقة أمير عثماني كان في أسره ، وإلا فإنه سيساعد ذلك الأمير على المطالبة بالعرش العثماني ، فخذها السلطان على الإمبراطور ، وبمجرد إخماده الثورة ، شرع في بناء حصن على الجانب الأوربي من البسفور في أضيق مكان منه على مبعدة من القسطنطينية بنحو خمسة أميال ، ولما احتج الإمبراطور على خرق حياد تلك المنطقة ، لم يأبه السلطان لاحتجاجه ، وبذا أصبحت الحرب بين الدولتين واقعة لا محالة ، ففقدت كلتاها خريف سنة ١٤٥٢ في إعداد معدات الحرب هجوماً ودفاعاً .

حصار القسطنطينية :

بعد أن تمت استعدادات الجانبين كاشف السلطان وزراءه ومستشاريه بعزمه على اقتحام القسطنطينية ، وأمر آلاف العمال بإعداد العربات اللازمة لنقل المدافع إلى ميدان القتال وتمهيد الطرق الصالحة لسيورها . وفي فبراير سنة ١٤٥٣ سار كرادجا باشا على رأس طليعة الجيش ومعه عشرة آلاف جندي تقدمهم المدافع الثقيلة تجرها العربات ، وفي الثالث والعشرين من هذا الشهر أفلح السلطان من عاصمته هديانوبل على رأس جمافل جرار سار يتهادى في موكبه ، حتى وصل في السادس من إبريل إلى ضواحي القسطنطينية . وفي اليوم التالي أعلن السلطان بداية حصارها ، وتخير الأماكن الصالحة لنصب مدافعه التي بلغ عددها ٩٩ ، كما رابط أسطوله في بحر مرمره مستعداً لشد أزر الجيش البري ، وابتدأت المدافع تصب على أسوار المدينة وأبلا من قذائفها ، حتى استطاعت أن تحدث بها بعض الثغرات . ولكن المدافعين كانوا يسرعون إلى ترميمها قبل استفحال خطرهما ، أو ساعدتهم على ذلك أن المدافع كانت تضطر إلى التوقف بعض الوقت حتى لا تنصهر فوهاتها ، وبينما المدافعون في هذا اليأس القاتل إذ وصلتهم من جزيرة خيوس إمدادات في خمس سفن حربية استطاعت أن تشق طريقها إلى القرن الذهبي تحت سمع الأسطول التركي وبصره ، وتمكنت من دخول الميناء سالمة بعد معركة طاحنة مع كثير من سفن الأسطول التركي .

وغضب السلطان لهذا الحادث ، ولكن اليأس لم يتسرب إلى نفسه الوثابة فلما أعياء اقتحام القرن الذهبي المحصن بالسلاسل المنيعه ، صمم على نقل جزء من

الأسطول برا بطريقة هندسية جريئة تشهد له بالمقدرة الفائقة والمبرية النادرة ؛ ذلك أنه مهد طريقا ووضع عليه كتلا خشبية عظيمة ملساء في مسافة الخمسة الأميال المحصورة بين البسفور والقرن الذهبي ، ثم أمر بدفع المراكب على ذلك الطريق وجذبها حتى وصلت سالمة إلى الخليج ، وتم ذلك كله في الليل دون إثارة ضجة أو ضوضاء ، حتى أصبح البيزنطيون في صبيحة الثالث والعشرين من إبريل فإذا هم بفاجئون برؤية السفن العثمانية داخل سلاسل القرن الذهبي ، فصعقتهم هذه المفاجأة الهائلة ، وأيقنوا بقرب نهايتهم المحتومة .

مركز المدافعين :

وأمام كل هذه الاستعدادات الجبارة كان مركز القسطنطينية المنيع وأسوارها الضخمة المتداعية في بعض أجزائها ، لا تغنى عنها شيئا أمام السلطان وجهافله ، وخاصة إذا علمنا أن المدافعين على قلة عددهم كانوا منقسمين شيئا وأحزابا ، وأعنتهم الخلافات المذهبية إلى حد دفع الفرانديق توتارس زعيم الأارثوذكس والذي أسندت إليه القيادة ، إلى أن يقول في صراحة إنه يفضل أن يرى عمامة السلطان في القسطنطينية على أن يرى فيها قلنسوة البابا . من أجل ذلك كله لم تنفع البسالة العظيمة والجرأة النادرة التي أبداها حنا غسنتيانى القائد الجنوى في الدفاع عن القسطنطينية وترميم الثغرات التي تحدثها قذائف المهاجمين إلا في تأخير أمد سقوطها .

المهجوم الأخير :

بعد ذلك أخذ معسكر السلطان إلى الهدوء فترة من الزمن ، بعد أن استمر قصف مدافعه نحو ستة أسابيع ، ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة ؛ ذلك أن السلطان أعد عدته للهجوم الحاسم على العاصمة ، واستنار حامية جنوده إلى أقصى حد عندما أعلن إليهم أن كل ما تقع عليه أيديهم في المدينة ملك لهم ما عدا الأراضي والمباني . وفي صبيحة التاسع والعشرين من مايو بدأ الهجوم واندفع العثمانيون كالأمواج المتلاطمة صوب أسوار المدينة ، وبدأ قصف المدافع تتجاوب أصداؤه من البر والبحر ، وشرع الجنود يتسلقون أسوار المدينة غير آبهين للوثة

الذى كان يترصدهم ، وأخيرا وبعد لآى استطاعوا أن يوسعوا الثغرة التى أحدثوها عند باب القديس رومانوس وتدافعوا إليها ، وفى تلك الأثناء خرجنا غسنيين جريحا كما صرع الامبراطور وهو يدافع عن أسوار عاصمته بنفسه ، فكان هذا مما فت فى أعضاد المدافعين وأدى إلى تراخيم فى الدفاع فلم يأت الظهر حتى كانت المدينة قد استسلمت للبطل المهاجم الذى سمي منذ تلك اللحظة محمدا الفاتح ، واجتني ثمار النصر الذى طالما اشرأبت إليه الأعناق ، وعند العصر تهادى موكبه الظافر يشق شوارع المدينة حتى وصل إلى كنيسة القديسة أيا صوفيا ، وكان أفراد حاشيته قد هيثوها ليؤدى فيها صلاة المغرب ، وعندما وصل إليها دخلها مطأطأ الرأس عارى القدمين وأدى صلاة المغرب .

وبعد ذلك أباح السلطان المدينة لجنده ثلاثة أيام برأ بوعده ، ثم أعاد إليها النظام والهدوء ، وأعلن أنه حامى الكنيسة الإغريقية ، وأن شخص الامبراطور اليونانى مصون مقدس معافى ومن معه من كبار موظفى الكنيسة ، وأن جميع اليونانيين فى حل من استعمال كنائسهم وإقامة طقوسهم الدينية من غير تعرض لهم أو تدخل فى شئونهم الدينية ، وبذلك طمأن رعاياه المسيحيين وأمنهم على أرواحهم ومنحهم الحرية الدينية ، وهذا تسامح جميل يذكر للفاتح العظيم بالفخر والثناء مما جعل مؤرخى الفرنج أنفسهم يعترفون - والفضل ما شهدت به الأعداء - بأن فتح القسطنطينية على يد الأتراك لم يحدث بها من الدمار مثل ما حاق بها على يد اللاتين فى مسهل القرن الثالث عشر .

القسطنطينية : عاصمة العثمانيين : أخذ محمد الفاتح بعد ذلك يفرى أغنياء رجال دولته بالرحيل إلى القسطنطينية ، ومنحهم الأرض اللازمة لبناء منازلهم ونقل مقر حكمه إليها ، وهكذا سقطت عاصمة البيزنطيين التليدة - بعد أن استمرت حاضرة لهم زهاء أحد عشر قرناً - فى يد المسلمين ولكنها لم تسقط فى يدهم لتندثر وتمحى من عالم الوجود ، بل انبعثت فى ثوب جديد وتصبح عاصمة الامبراطورية التركية العظيمة زهاء خمسة قرون ، وهكذا استأنفت حياتها كأعظم مدن الشرق قاطبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في عيد المولد النبوي

كلمة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى
شيخ الجامع الأزهر فى احتفال الأزهر بعيد الميلاد الملكى

فى يوم السبت الحادى عشر من شهر فبراير احتفل حضرة صاحب الفضيلة
الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر بعيد ميلاد حضرة
صاحب الجلالة الملك ، فاروق الأول ، أعزه الله وأمهه بتأييده ؛ فاحتشد فى الرواق
العباسى بالأزهر المعمور عقب صلاة العصر جمهور غفير من كبار رجال الحكومة ،
وأصحاب الفضيلة العلماء وحضرات الوجاه والأعيان وطلاب العلم ؛ فنهض فضيلته
فى الساعة الثالثة والنصف خطيباً فألقى كلمة جمعت من مناقب حضرة صاحب
الجلالة ما تحدثت به الركبان ، وسرى ذكره فى الخافقين ، فى عبارات بليغة ،
وأسلوب بديع ، فكان لها أجمل وقع فى الأسماع ، وأبلغ تأثير فى النفوس ، وختمها
بالدعاء لجلالته بدوام التوفيق والسداد ، وللبغفور له والده العظيم بالرحمة
والرضوان . وانصرف المحتفلون يرجون لجلالة الملك طول البقاء ، ودوام التوفيق
لإبلاغه متمنياته العالية من إيصال بلاده إلى أرفع مكانات السؤدد والعمران .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد
النبي الكريم ، وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى
أنزل معه .

تبارك الله أحسن الخالقين : من سبحاته وتعالى على وادى النيل السعيد ،
فى هذا اليوم المشرق الغرة ، الميمون الطالع ، بمولد الملك الكريم ، فاروق العظيم ؛

ففاض على الوادى نور ملأه إشراقاً وبهاءً ، وبهجة وسناء ، وتوالت عليه النعم ؛ فاتحدت كلته أبنائه ، وتوحدت صفوفهم ، وحظيت البلاد باستقلالها ، ونعمت بسيادتها . ولما تربح حفظه الله على عرش مصر ، ملك قلوب أبنائها بما أثره ، ومس يده العبقريّة شئوننا ، فسرى الخير واليمن فى جميع أوصالها ، ودبت الحياة الفتيّة فى كل أجزائها ، فهبت وثابة تستبق المجد ، وتنافس أعلى الأمم حضارة ورقياً .

وفى الحق إن فيض الفاروق ومنته قد أحييت الوادى ونهضت به نهضة رفيعة فى كل مرافقه ومناحيه ؛ فأينما تول وجهك فنسم نعمة للفاروق العظيم . ففى التعليم قطعت البلاد شوطاً لم تكن لتبلغه لولا توجيه الفاروق ورعايته ؛ وفى الزراعة والصناعة وغيرهما تقدمت البلاد تقدماً عظيماً حتى أصبحت لها مكانة مرموقة بين الأمم ؛ وما كانت لتسمو إلى هذا الأوج لولا عناية الفاروق وحرصه على أن تسمى بلاده أعرق الأمم حضارة ومجداً .

أما الأزهر وهو متّابة الدين ، فقد لقي من عناية جلالته وعطفه وحسده ما وطد دعائمه ، وثبت أركانه ، ووسع آفاقه ، وأعلى صوته ، وشعب معاهده ، حتى انتشر التعليم الدينى فى جميع أنحاء البلاد ، وجاوزها إلى الأقطار العربية ، والبلاد الإسلامية فى شتى بقاع الأرض ، وحتى أصبح الناس فى الخافقين ولا حديث لهم إلا أنعم الفاروق وأياديه البيضاء على العلم والدين . ولقد وسع عطف جلالته أبناء البلاد الإسلامية جميعاً ، وأظلمهم بظله الوارف ، وأمر بأن يفتح الأزهر أبوابه لأبناء المسلمين من شتى بقاع الأرض ؛ ليتعلموا ويتفقهوا فى الدين ؛ ليرشدوا قومهم إذا رجعوا إليهم ؛ ووفر لهم معونة مالية سخية تمينهم على طلب العلم ؛ وتلك منة عظيمة طوق بها الفاروق جيد الدهر ، وملك بها قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، حتى أصبح اسمه الكريم بفضل هذه الرعاية السامية ، عنواناً على البر والرحمة والأخوة الإسلامية .

أما رعاية جلالته للدين وحرصه على نشره ، فإنه - شهد الله - قد أحيا سنن السلف الصالح فى الإقبال على العلم والدين ؛ ومصر كلها ، بل العالم الإسلامى أجمع ، يشهد أن جلالته قد فجر فيه عيون العلم والمعرفة ، وأمر بتوجيه بعوث العلماء إلى كل الأقطار للدعوة للحق ، وهداية الناس ، ونشر تعاليم الإسلام .

فهرس

الجزء الرابع - المجلد الحادي والعشرون

الموضوع	بقلم	صفحة
ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ...	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	٢٨٩
وحدة الأمم ووحدة الأديان ...	العزة مدير المجلة ...	٢٩٢
الشعر ...	فضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين	٢٩٦
لا تيأسوا من روح الله ...	محمد محمد المدني	٣٠٢
نظرات في توثيق المعاملات ...	عبد اللطيف السبكي	٣٠٦
القتل غيلة في الإسلام ...	عبد المتعال الصعدي	٣١١
بين مالك والليث ...	عبد الله المراغي	٣١٥
مفردات فلسفية ...	الدكتور محمد يوسف موسى	٣٢١
لغويات ...	الشيخ محمد علي النجار	٣٢٤
البيان لا المعجزة ...	حضرة صاحب السباحة السيد	٣٣٠
الشريعة الإسلامية وقانون	فضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغي	٣٣٣
من أين لك هذا ...		
سعيد بن المسيب ...	محمود النواوي	٣٣٦
الدوق في القرآن ...	ابراهيم أبو الخشب	٣٤٢
أعلام الأزهر ...	محمد كامل الفقي	٣٤٥
تأثر الشعر العربي ...	عبد الحميد المسلول	٣٥٠
طاليس ...	حضرة الدكتور احمد فؤاد الأهواني	٣٥٥
العز بن عبد السلام ...	فضيلة الأستاذ الشيخ حسن العماري	٣٦١
قصص القرآن الكريم ...	عبد الغني الراجحي	٣٦٧
تجارب الشعور ...	عبد المنعم علي أبو سعيد	٣٧٢
لحبات خالدة ...	كامل محمد عجلان	٣٧٦
فتح القسطنطينية ...	الأستاذ أحمد صلاح الدين عبد الرحمن	٣٨٠